

بسم الله الرحمن الرحيم الحديث الحادى والثلاثون

عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ثلاثة لا ترى أعينهم النار : عينٌ حرَّستُ في سبيل الله ، وعينٌ بَكَتْ من خشية الله ، وعينٌ كَفَّتْ عن محارم الله » .

تخريج الحديث :

الحديث أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب التوبة والزهد : باب : الترغيب فى البكاء من خشية الله تعالى ٢٣٠ / ٤ من حديث معاوية بن حيدة مرفوعاً ، وعقَّب عليه بقوله : « رواه الطبرانى ، ورواته ثقات ، إلا أنَّ حبيب العنقزى لا يحضرنى الآن حاله » .

وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الجهاد : باب : الخرس فى سبيل الله ٢٨٨ / ٥ من حديث معاوية بن حيدة مرفوعاً ، وعقَّب عليه بقوله : « رواه الطبرانى ، وفيه أبو حبيب العنقزى ، ويقال : القنوى ولم أعرفه ، وبقيه رجاله ثقات » .

المعنى العام للحديث :

رسالة الإنسان بَلَّه المسلم فى هذه الأرض ليست بالأمر الهين ولا باليسير ، إذ هو مطالب أن يعبد نفسه لله فيعمر هذه الأرض ، وينزل على حكم الله فى كل ما يأتى وما يدع ، ويزيد المسلم على ذلك ، أن عليه أن يقوم بواجب الدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومجاهدة الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً ، مجاهداً بذلك نفسه الأمانة بالسوء ، وشياطين الإنس والجن ، والدنيا بشدائدها وامتحاناتها ، بزخارفها وزيناتها ، مستمراً فى هذه المجاهدة إلى أن يلقى الله ، دون انحراف أو تبديل ، وذلك فيه من الصعوبة والمشقة ، والتعب ما فيه .

ولا يستعذب الإنسان بَلَّه المسلم هذه الصعوبة ، ولا تهون عليه تلك المشقات والمتاعب إلا إذا كان الثمن الذى يتقاضاه أكبر ، وأعظم من هذه الصعوبات ، وتلك المشقات والمتاعب .

والحديث الذى نحنُ بصدده شرحه وبيانه الآن يتضمن نوعاً غالياً من الثمن يُعطاهُ المرء المسلم حين يجاهد نفسه فى الالتزام بثلاثة أنواع من الطاعات والتكاليف، متحملاً بذلك المشاق والمتاعب .

أما هذه الطاعات وتلك التكاليف :

فأولها : السهر فى الحراسة فى سبيل الله : حمايةً للمجاهدين ، وحمايةً للشغور، وحمايةً للحق، وصيانةً للدماء والأموال والأعراض ونحوها، إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « عينٌ حرسَتْ فى سبيل الله » .

وثانيها : البكاء إجلالاً وتعظيمًا وخشيةً لله - عز وجل - إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « وعينٌ بكتُ من خشية الله » .

وثالثها : غض البصر، وكف الطرف عن محارم الله، إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « وعينٌ كَفَّتْ عن محارم الله »

وأما الثمن ، فهو صيانة العين على اعتبار أنها العضو الذى تعب وتحمل المشاق فى سبيل إتيان هذه الطاعات وتلك التكاليف، صيانتها عن أن ترى النار فضلاً عن أن تُعذَّب بها، وإذا سَلِمَتُ العين من رؤية النار والتعذيب بها، سَلِمَ صاحبها وحاملها من باب أولى ، إذ لا يُعقل أن تسلم العين من ذلك، ويعذب صاحبها، يقول صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ترى أعينهم النار » .

وحتى تبرز معالم الحديث بصورة أجلى وأوضح فإننا سنعرض له من هذه الجوانب:

الجانب الأول : مفهوم العدد فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ترى أعينهم النار . . . » وجمال هذا التعبير .

الجانب الثانى : معنى الحراسة فى سبيل الله، وصورها، وأهميتها، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة فى فضل الحراسة فى سبيل الله .

الجانب الثالث : معنى خشية الله، والفرق بينها وبين الخوف، والخشية ومظاهرها، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة فى فضل البكاء من خشية الله .

الجانب الرابع : معنى كف العين عن محارم الله وفوائده، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة فى فضل غض الطرف عن محارم الله .

الجانب الأول : مفهوم العدد فى قوله ﷺ : « ثلاثة لا ترى أعينهم النار ... » وجمال هذا التعبير :

والعدد فى قوله ﷺ : « ثلاثة لا ترى أعينهم النار » لا مفهوم له ، بدليل ورود الأحاديث بخصال أخرى غير هذه الثلاثة توجب لصاحبها السلامة من النار ، ومنها قوله ﷺ : « ثلاثة أعين لا تمسها النار : عين فقتت فى سبيل الله ، وعين حرس فى سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله » (١) ، وقوله ﷺ : « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » (٢) .

فحصل من مجموع الحديثين مع حديث الباب أربع خصال : توجب لصاحبها السلامة من النار : المعبر عنها بسلامة العين من أن تمسها النار وهى : كف العين عن محارم الله ، والبكاء من خشية الله ، والسهر للحراسة فى سبيل الله ، وذهاب العين فداءً لدين الله .

وجمال هذا التعبير أنه نية بالأدنى على الأعلى ، يعنى : أن من لم ير النار فإنه يسلم من التعذيب بها من باب أولى ، كما أطلق الجزء وأراد الكل ، يعنى : إذا سلمت العين من رؤية النار ، سلم صاحبها ، إذ الأعضاء يتداعى بعضها إلى البعض فى الشدة وفى الرخاء .

الجانب الثانى : معنى الحراسة فى سبيل الله وصورها وأهميتها ، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة فى فضل هذه الحراسة :

والحراسة فى سبيل الله تعنى : حماية المسلمين وثغورهم ، وديارهم من عدوان المعتدين ، وتطاول المتطاولين بكل ما يمكن من أساليب ووسائل ، شريطة ألا تتعارض هذه الأساليب ، وتلك الوسائل مع مبادئ الدين الحنيف ، ولذلك صور ، منها :

١ - تعليم المسلمين ، وتفقيههم أمر دينهم ، وإطلاعهم على خطط ومكائد العدو ، وكيفية إحباط هذه الخطط ، وتلك المكائد ، كيلا يؤتى المسلمون من قبل أنفسهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٢) ﴿ [التوبة] .

(١) الحديث هو حديث الباب ، وسبق تخريجه .

(٢) الحديث سبق تخريجه .

٢ - تربية المسلمين على الالتزام بالإسلام الحق، كلُّ في ميدانه، الرَّاعَى مع رعيته، والرجل في أهله، والمرأة في بيت زوجها ومع ولده، والخازن في مال سيِّده، والجار مع جاره، والأخ مع أخيه، وهلمَّ جرا . . .

٣ - والمرابطة على الشغور والأطراف المتاخمة للعدو، والتي يخشى منها التسلل إلى بلاد المسلمين، وإيذائهم في دمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، وأوطانهم، ومقدَّساتهم .

٤ - حماية المجاهدين وقيادتهم في ميدان الجهاد، بأعين ساهرة مفتوحة، وهمَّة مجموعة، وأذان صاغية واعية، وأعصاب صاحبة منتبهة، وقلب حاضر .

٥ - القيام على أسرَّ المجاهدين بتوفير حاجياتهم من طعام وشراب ولباس، وسكنى، وتعليم، وتطبيب، وأمن، ونحو ذلك، حتى يرجع هؤلاء المجاهدون من ميدان الجهاد . . . إلى غير ذلك من الصور .

وتظهر أهمية هذه الحراسة في أنها تكون سبباً في تأمين المسلمين على دينهم، ودمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، وذرياتهم، ومقدَّساتهم وأوطانهم كيلا يتناول عليها المتناولون، أو يعيث بها العابثون، الأمر الذي يساعد المسلمين في النهاية ويمكنهم من أداء واجبهم بإتقان فتبقى لهم الشهادة على العالمين .

وقد وردت أحاديث أخرى في فضل هذه الحراسة غير هذا الحديث، منها حديث فضالة بن عبيد مرفوعاً : « كل ميِّت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله فإنه يُنمى له عمله إلى يوم القيامة ، ويؤمَّن فتنة القبر » (١) .

وحديث أبي هريرة مرفوعاً : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط » (٢) .

وحديث سهل بن سعد مرفوعاً : « رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها » (٣) .

وحديث سلمان مرفوعاً : « رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأُجرى عليه رزقه، وأمِنَ الفتنان » (٤) .

(١) هذه الأحاديث الأربعة سبق تخريجها في : الجزء الثاني : الحديث الخامس والعشرين .

وحديث أبى هريرة مرفوعاً : « مَنْ مات مرابطاً فى سبيل الله أُجْرَى عليه أُجْرَ عمله الصالح الذى يعمل ، وأُجْرَى عليه رزقه ، وأَمِنَ مِنَ الْفِتَنِ ، وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفزع » (١) .

وحديث أنس رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أجر الرباط فقال : « مَنْ رابط ليلة حارساً مِنْ وراء المسلمين كان له أجر مَنْ خلفه ، مِمَّنْ صام ، وصلى » (٢) .

وحديث سهل بن معاذ ، عن أبيه مرفوعاً ، : « مَنْ حرس وراء المسلمين متطوعاً لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم » (٣) .

وحديث العرياض بن سارية ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل عمل ينقطع عن صاحبه إذا مات إلا المراتب فى سبيل الله ، فإنه يُنمى له عمله ، ويجرى عليه رزقه إلى يوم القيامة » (٤) .

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « عينان لا تمسهما النار : عينٌ بكت من خشية الله ، وعينٌ باتت تحرس فى سبيل الله » (٥) .

إلى غير ذلك من الأحاديث .

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الجهاد : باب : فضل الرباط فى سبيل الله ٩٢٤/٢ رقم ٢٧٦٧ وهذا لفظه ، وعقب عليه البوصيرى فى : مصباح الزجاجه ، بقوله : « إسناده صحيح ، معيد بن عبد الله بن هشام ذكره ابن حبان فى : الثقات ، ويونس بن عبد الأعلى ، أخرج له مسلم ، وباقى رجال الإسناد على شرط البخارى ، وأورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب الجهاد : باب : الترغيب فى الرباط فى سبيل الله [٣٦٨/١ رقم ٦٥٥ المتقى] من حديث أبى هريرة ، وعقب عليه بقوله : « رواه ابن ماجه بإسناد صحيح ، والطبرانى فى الأوسط أطول منه » .

(٢) الحديث أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب الجهاد : باب : الترغيب فى الرباط فى سبيل الله [٣٦٨/١ رقم ٦٥٦ المتقى] من حديث أنس بهذا اللفظ ، وعقب عليه بقوله : « رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد جيد » ، كما أورده الهيمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الجهاد : باب فى الرباط ٢٨٩/٥ من رواية أنس أيضاً ، وبلغظه ، غير أنه قال : « يوماً » بدل : « الليلة » ثم عقب عليه بقوله : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، ورجاله ثقات » .

(٣) الحديث أخرجه أحمد فى : المسند ٤٣٧/٣ ، ٤٣٨ من طريق ابن لهيعة ، ورشدين كلاهما عن زياد ، عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه مرفوعاً بلفظ : « مَنْ حَرَسَ مِنْ وراء المسلمين فى سبيل الله - تبارك وتعالى - متطوعاً لا يأخذه سلطان ، لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم ، فإن الله - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ » ، وعقب عليه الهيمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الجهاد : باب : الحرس فى سبيل الله ٢٨٧/٥ ، ٢٨٨ بقوله : « رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والطبرانى ، وفى أحد إسناده أحمد ، ابن لهيعة ، وهو أحسن حالاً من رشدين » .

(٤) الحديث أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب الجهاد : باب : الترغيب فى الرباط فى سبيل الله [٣٦٨/١ رقم ٦٥٤ المتقى] ، وعقب عليه بقوله : « رواه الطبرانى فى الكبير بإسنادين ، رواه أحدهما ثقات » ، وكذا قال الهيمى فى : مجمع الزوائد : ٢٩٠/٥ .

(٥) الحديث سبق تخريجه فى : الجزء الثانى : الحديث الرابع والعشرين .

الجانب الثالث : معنى خشية الله والفرق بينها وبين الخوف والخشية ومظاهرها ، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة في فضل البكاء من خشية الله :

ومعنى خشية الله : خوفه الناشئ من معرفته سبحانه ، ومعرفة كمال نعمته مع الشعور بالتقصير في شكر هذه النعمة ، خوفاً يؤدي إلى أن تلين الجلود والقلوب بذكر الله ، والعينان بالبكاء .

والفرق بين الخشية والخوف : أن الخشية أشد من الخوف ، إذ هي تكون من عظم المخشى ، وإن كان الخاشي قوياً ، والخوف يكون من ضعف الخائف ، وإن كان المخوف أمراً يسيراً^(١) .

يقول ابن القيم : [والخشية أخص من الخوف ، فإن الخشية للعلماء بالله ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، فهي خوف مقرون بمعرفة ، وقال النبي ﷺ : « إني أتقاكم لله ، وأشدكم له خشية » ، فالخوف حركة ، والخشية : انجماع وانقباض وسكون ، فإن الذي يرى العدو والسيل ، ونحو ذلك ، له حالتان : إحدهما : حركة للهروب منه ، وهي حالة الخوف ، والثانية : سكونه ، وفراره في مكان لا يصل إليه فيه ، وهي الخشية ، ومنه : انخس الشيء ، والمضاعف ، والمعتل أخوان ، كتقضى البازي ، وتقضض . . . فصاحب الخوف ، يلتجئ إلى الهرب ، والإمسك ، وصاحب الخشية ، يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم ، ومثلهما مثل من لا علم له بالطب ، ومثل الطبيب الحاذق ، فالأول يلتجئ إلى الحمية والهرب ، والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية ، والأدواء^(٢) .

ومن المظاهر التي تعرف بها الخشية لله غير البكاء الوارد في الحديث القيام بحق الله كاملاً مع الإشفاق ألا يقبل ذلك ، لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) ﴾ [المؤمنون] .

تقول عائشة رضي الله عنها : قلت : يا رسول الله ! قول الله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ

(١) انظر : الكلبيات لأبي البقاء الكفوي ، ص ٤٢٨ .

(٢) انظر : تهذيب مدارج السالكين للأستاذ : عبد المنعم صالح ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

وَجِلَّةٌ ﴿١﴾ ، أو هو الذى يزنى ، ويشرب الخمر ، ويسرق ؟ قال : « لا يا ابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ، ويصلى ، ويتصدق ، ويخاف ألا يُقبل ذلك منه » (١) .

وقال الحسن : « عملوا لله بالطاعات ، واجتهدوا فيها ، وخافوا أن تُردَّ عليهم ، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية ، والمنافق جمع إساءةً وأمنًا » (٢) .

وقد جاءت نصوصٌ أخرى غير حديث الباب فى فضيلة البكاء من خشية الله ، منها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٨٢) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ [المائدة] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ خُشوعًا ﴿١٠٩﴾ [الإسراء] .

وقوله ﷺ : « مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ ، ففاضت عيناه من خشية الله حتى يصيب الأرض من دموعه لم يعذبه الله تعالى إلى يوم القيامة » (٣) .

وقوله ﷺ : « ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين ، وأثرين : قطرة دموع من خشية الله ، وقطرة دم تراق فى سبيل الله ، وأما الأثران : فأثر فى سبيل الله ، وأثر فى فريضة من فرائض الله - عز وجل » (٤) .

وقوله ﷺ : « إذا اقتشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه ، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها » (٥) .

وإنما كان البكاء من خشية الله موجبًا لصاحبه النجاة من النار فلا تمسه النار أبدًا ، لاسيما هذه العين الباكية ؛ لأنه صار علامة على الاعتراف لله بكامل الربوبية والألوهية ، واتهام النفس بالتقصير ، والتفريط فى جنب الله ، فأشبه ذلك ما قاله يونس وهو فى

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب التفسير : ومن سورة المؤمنون ٣٠٦/٥ ، ٣٠٧ رقم ٣١٧٥ ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب : التوقى على العمل ١٤٠٤/٢ رقم ٤١٩٨ ، وأحمد فى : المسند ١٥٩/٦ ، ٢٠٥ كلهم من حديث عائشة مرفوعًا ، واللفظ لابن ماجه وأحمد .

(٢) انظر : تهذيب مدارج السالكين ، ص ٢٦٩ .

(٣) ، ٤ ، ٥ هذه الأحاديث الثلاثة سبق تخريجها فى : الجزء الثانى : الحديث الرابع والعشرين .

بطن الحوت : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧) فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٨) ﴿ [الانبياء] .

كما أشبه التوبة النصوح الواردة في قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٨) ﴿ [التحريم] .

والتوبة النصوح لا جزاء لها - كما نعلم - إلا تكفير الذنوب، بل تبديلها بالحسنات، إذ يقول سبحانه : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٧) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿ (٧١) ﴿ [الفرقان] .

الجانب الرابع : معنى كف العين عن محارم الله وفوائده، مع ذكر بعض النصوص الأخرى الواردة في فضل كف الطرف عن محارم الله :

ومعنى كف العين عن محارم الله : منع هذه العين من النظر إلى ما حرّمه الله عليها، فلم تتطلع أو تنظر إلى شيء من ذلك امتثالاً لأمر الله، وجاء في رواية أخرى : « وعين غَضَّتْ عن محارم الله »، أى : خفضت، وأطرقت^(١) ، والمعنى واحد، ولهذا الكف أو لهذا الغض صور، منها :

١ - منع العين، من النظر إلى ما لا يحل النظر إليه من المحارم إلا لضرورة من تطيب، أو إنقاذ، ونحوهما .

٢ - منع العين كذلك من النظر إلى نعمة الغير ممن هو أهل لها من المؤمنين نظرة حقد، وحسد .

٣ - ومنع العين من النظر أو التطلع إلى زهرة الحياة الدنيا تطلعاً يجعل لها سيطرة أو سلطاناً على القلب .

قال تعالى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٨) ﴿ [الحجر] .

(١) انظر : فيض القدير للمناوى ٣/٣٢٣ بتصرف .

قال ابن عباس : [﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾] نهى الرجل أن يتمنى ما لصاحبه [، وقال مجاهد : [﴿ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾] ، هم الأغنياء] (١) .
وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه] .

وعن عمر بن الخطاب : أنه دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن فرآه متوسداً، مضطجعاً على رمال حصير، وليس فى البيت إلا صبرة من قَرَطَ واهية (٢) معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك يا عمر ؟ » ، فقال : يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه، فقال : « أفى شك أنت يا بن الخطاب ؟ ، أولئك قومٌ عَجَّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا » (٣) .

وفوائد كف العين عن محارم الله :

- ١ - قطع الطريق على الشيطان أن يدخل إلى القلب فيفسده .
- ٢ - أن يظل المرء مجموع الهمة ، حاضر العقل والفؤاد، متبته الأعصاب .
- ٣ - سلامة القلب، وسكينة وطمأنينة النفس، بحيث يجد المرء لذة أو حلاوة للإيمان .
- ٤ - عدم التعلق بالحياة الدنيا ، والركون إليها ، والاطمئنان بها .

وقد جاءت نصوص كثيرة فى فضيلة الكف عن محارم الله غير ما ورد فى الحديث، منها قوله سبحانه : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ

(١) انظر : مختصر تفسير ابن كثير ٣١٨/٢ .

(٢) الصبرة هى : ما جُمع من الطعام بلا كيل ووزن، وهى الطعام المنخول، وهى الحجارة الغليظة المجتمعة [القاموس ٩٥/٢ مادة : صبر] .

والقرط : ورق شجر شائك اسمه : « السلم » يستعمل فى دبغ الجلود [انظر : القاموس ٥٨٦/٢ مادة : قَرَطَ] .

ومراد عمر ﷺ أن يته ﷺ كان خاويًا ليس فيه شىء سوى وعاء واهٍ معلق به هذه الأوراق التى تدبغ بها الجلود، وهو رسول الله ﷺ وأكرم الخلق على الله، بينما بيوت كسرى وقيصر تكاد تغص بالحزير، والنعيم، وهما أبغض الخلق إلى الله .

(٣) الحديث أورده ابن كثير فى تفسيره ٤٩٩/٢ [مختصر تفسير ابن كثير] ، قائلاً : « وفى الصحيح » ، وساقه، وأصله فى : صحيح البخارى .

أَرْكَبِي لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ ﴿ [النور] .

وقوله ﷺ: « إياكم، والجلوس في الطرقات » ، قالوا : يا رسول الله ما لنا بُدُّ من مجالسنا نقعد فيها، فقال رسول الله ﷺ: « إن أبيتم، فأعطوا الطريق حقه » ، قالوا : وما حقُّ الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غَضُّ البصر، وكف الأذى، وردُّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (١) .

وقوله أيضاً : « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، فمن تركه من مخافة الله أبدله الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه » (٢) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ، ثم يغضُّ بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها » (٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عيناً غَضَّتْ عن محارم الله ، وعيناً سَهَّرَتْ في سبيل الله، وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله - عز وجل » (٤) .

أما غض البصر خاصة فله فوائد، نذكر منها :

١ - قوة الإيمان وحلاوته، كما نطقت بذلك الأحاديث المذكورة آنفاً .

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب المظالم : باب : أفنية الدور، والجلوس فيها، والجلوس على الصدقات، ص ٣٩٧، رقم ٢٤٦٥، وأبو داود في : السنن : كتاب الأدب، ص ٦٨١ رقم ٤٨١٥، كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٢٨٢/٣، وعزاه للطبراني من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً بهذا اللفظ ، وأورده الهيثمي في : المجمع ٦٣/٨ وعزاه للطبراني وعقب عليه بقوله : « وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف » .

(٣) الحديث أخرجه أحمد في : المسند ٢٦٤/٥ [ص ١٦٤٧ رقم ٢٢٦٣٤ من حديث أبي أمامة مرفوعاً بهذا اللفظ]، وأورده الهيثمي في : مجمع الزوائد : كتاب الأدب : باب : غض البصر ٦٣/٨، وعزاه إلى أحمد، والطبراني إلا أنه قال : « ينظر إلى امرأة أول وقعة »، وفيه علي بن يزيد الألهماني ، وهو متروك، وأورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٢٨٢/٣ وعقب عليه بقوله : « ولكن في أسانيدنا ضعف، إلا أنها في بالترغيب ومثله يتسامح فيه » .

(٤) الحديث أورده ابن تيمية في : دقائق التفسير ٤٤٦/٤، ٤٤٧ وعزاه إلى ابن أبي الدنيا من حديث عمر بن محمد بن صهبان، عن صفوان بن سليم عن أبي هريرة بهذا اللفظ ، وأورده الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة .

٢ - الحماية من التشتت الذهني مع القدرة على حضور القلب وجمع الهمة إذ من يُطلق العنان لبصره يُبتلى بالتشتت الذهني ، وعدم القدرة على حضور القلب ، وجمع الهمة . . ومن يجاهد نفسه ويغض طرفه فإن الله سبحانه يمنُّ عليه بحضور القلب ، وجمع الهمة مع الحماية من التشتت الذهني .

٣ - التوفيق إلى مزيد من الطاعات ، وأعمال البرّ والمعروف ، لحديث أبي أمامة المُخْرَجِ في : المسند، المذكور قريباً، الأمر الذى ينتهى إلى النور والفراسة .

٤ - النجاة من الحزن والبكاء يوم القيامة ، بل الظفر بالفرح والسرور لحديث : «كل عين باكية يوم القيامة إلا عيناً غضت عن محارم الله . . . » .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله : « ولهذا يقول : إن غضَّ البصر عن الصورة التى ينهى عن النظر إليها كالمرأة ، والأمرد يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر : أحدها : حلاوة الإيمان ، ولذته التى هى أحلى وأطيب مما تركه لله ، فإن من ترك شيئاً لله ، عوضه الله خيراً منه . . . » ^(١) .

وأما الفائدة الثانية فى غض البصر ، فهو يورث نور القلب ، والفراسة . . ودَكَرَ الله سبحانه آية النور عقيب آيات غض البصر، فقال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] ، وكان شاه بن شجاع الكرمانى - سليل بيت الملك ، جليس العلماء كأبى تراب النخشبى ، وغيره ، معروف بالعلم والمجاهدة (ت قبل الثلاثمائة) - لا تخطئ له فراسة ، وكان يقول : مَنْ عَمَّرَ ظَاهِرَهُ بِاتِّبَاعِ السَّنَةِ ، وَبِاطْنَهُ بِدَوَامِ الْمِرَاقِبَةِ ، وَغَضَّ بَصْرَهُ عَنِ الْمَحَارِمِ ، وَكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ ، وَعَوَّدَ نَفْسَهُ أَكْلَ الْحَلَالِ لَمْ تَخْطِئْ لَهُ فِرَاسَةٌ ، وَاللَّهُ يَجْزِي الْعَبْدَ عَلَى عَمَلِهِ بِمَا هُوَ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ ، فَيُطَلِّقُ نُورَ بَصِيرَتِهِ ، وَيُفْتَحُ عَلَيْهِ بَابَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ ، وَالْكَشُوفِ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يُنَالُ بِبَصِيرَةِ الْقَلْبِ .

الفائدة الثالثة : قوة القلب ، وثباته ، وشجاعته ، فيجعل الله له سلطان البصيرة مع سلطان الحجّة ، فإن فى الأثر : « الذى يخالف هواه ، يفرق الشيطان من ظله » ، ولهذا يوجد فى المتبع هواه من ذلِّ النفس ، وضعفها ، ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه ، وإن الله جعل العزّة لمن أطاعه ، والذلّة لمن عصاه ، قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَنْ رَجَعَنَّآ إِلَى الْمَدِينَةِ لِنُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ،

(١) انظر : دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية ٤/٤٦٧ ط ، علوم القرآن - دمشق - بيروت ، الثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩) [آل عمران] ، ولهذا كان من كلام الشيوخ : الناس يطلبون العزَّ بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله ، وكان الحسن البصرى يقول : إن هملجت بهم البراذين ، وطققت بهم البغال ، فإن ذل المعصية فى رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه ، ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، ومن عصاه ففيه قسط من فعل من عاداه بمعاصيه « (١) .

ويعين على غض البصر ما يلي :

- ١ - استحضار مراقبة الله ، وإطلاعه على كل ما يقع من العبد فى سره وعلانيته ، وحده أو مع غيره ، وأينما وجد ، فإن هذا الاستحضار إن كان صادقاً سيحمل صاحبه على غض البصر ، استحياءً من الله عز وجل .
 - ٢ - استحضار الرجوع إلى الله - عز وجل - والوقوف بين يديه ، والسؤال عن كل شىء حتى عن خائنة الأعين ، ثم المجازاة بما هو من جنس العمل ، فإن ذلك من شأنه أن يحمل على الكف عن محارم الله خوفاً مما يكون فى يوم الحساب والجزاء .
 - ٣ - صحبة الأتقياء البررة المعروفين بغض أبصارهم ، وحفظ فروجهم ، فإن هذه الصحبة لها أعظم التأثير فى التذكير عند النسيان ، والإعانة عند الذكر .
 - ٤ - استحضار الثمرات المترتبة على غض البصر ، فإن هذه الثمرات يمكن أن تسهم فى تقوية روح المجاهدة ، وصدق العزيمة ، وعلو الهمة .
 - ٥ - محاسبة النفس أولاً بأول ، مع الحزم الصادق فى تأديب النفس عند اكتشاف التقصير ، والخلل .
 - ٦ - التجوال المستمر فى سير السلف ، وكيف كان اهتمامهم بغض أبصارهم ، ودعوتهم المستمرة إلى ذلك ، فإن ذلك من شأنه أن يحمل على الاقتداء ، والتأسى ، أو على الأقل المحاكاة والتشبه .
- ما يُستفاد من الحديث دعويًا ، وتربويًا :

يستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا عدة فوائد ، نذكر منها :

- ١ - الحرص على المراقبة فى سبيل الله ، كلُّ بما لديه من طاقات وإمكانات لما

(١) انظر : دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية ٤/٤٦٨ ، ٤٦٩ .

تؤدى إليه هذه المرابطة من صيانة الدماء، والأموال، والعقول، والأعراض، والدين، وبالتالي عز المجتمع وتقدمه، ورقيه، هذا فضلاً عن النجاة من النار، والظفر بجنة عرضها السموات والأرض، ورؤية الله - عزَّ وجلَّ .

٢ - مجاهدة النفس للظفر بالخوف من الله - عزَّ وجلَّ - وخشيته بصورة يكون معها البكاء، والمحافظة على حدود الله، لما يمكن أن تثمره هذه الخشية من أداء الواجبات بصدق وإتقان، ومع الحفاظ على الحرمات فتكون الحياة الطيبة فى الدنيا، والفوز والنجاة غداً برحمة من الله ورضوان .

٣ - ترويض النفس على أن تكف عن محارم الله لما يؤدى إليه ذلك من انتشار الأمن والأمان فى النفس، وفى واقع الحياة، والنجاة من النار، والمثوبة بجنة الله ورضوانه .

٤ - العمل على كف البصر عمّا لا يحل النظر إليه كصورة من صور الكف عن محارم الله، لما لذلك من فوائد وثمرات ذُكرت آنفاً .

٥ - الحرص على تذوق البلاغة النبوية التى عبر عنها النبى ﷺ فى هذا الحديث ببيان صيانة أعين هذه الأصناف الثلاثة عن رؤية النار ، فضلاً عن التعذيب بها، وإرادة سلامة صاحبها من باب أولى من باب التعبير بالجزء، وإرادة الكل، إذ لا يُعقل أن تسلم العين من النار، ويُعذب صاحبها ، حقاً إنه أوتى جوامع الكلم ، واختُصر له الكلام اختصاراً .

الحديث الثاني والثلاثون

عن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على الناس » .

تخريج الحديث :

الحديث جزء حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب العلم : باب : من يُرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ٢٧/١ ، ٢٨ من حديث ابن وهب عن يونس ، عن ابن شهاب ، عن حميد بن عبد الرحمن ، عن معاوية بن أبى سفيان عن النبى ﷺ ، وتماهه : « من يُرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم ، والله يعطى ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » ، وكتاب فرض الخمس : باب : قول الله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الانفال : ٤١] ، يعنى للرسول قسم ذلك ، وقال رسول الله ﷺ : « إنما أنا قاسم ، وخازن ، والله يعطى » ١٠٣/٤ من حديث عبد الله عن يونس عن الزهرى ، عن حميد بن عبد الرحمن ، عن معاوية مرفوعاً بلفظ : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، والله المعطى وأنا القاسم ، ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون » وكتاب المناقب : باب : منه ٢٥٢/٤ من حديث الحميدى ، قال : حدثنا الوليد ، قال حدثنى ابن جابر ، قال حدثنى عمير بن هانىء ، أنه سمع معاوية يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ، قال عمير ، فقال مالك بن يخامر ، قال معاذ : وهم بالشام ، فقال معاوية : هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول : وهم بالشام ، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : باب : قول النبى ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، وهم أهل العلم » ١٢٥/٩ من حديث ابن وهب ، عن الزهرى ، عن حميد ، عن معاوية مرفوعاً : « من يُرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم ، والله يعطى ، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة ، أو حتى يأتي أمر الله » ، وكتاب التوحيد : باب : قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ ﴾ [النحل : ٤٠] ،

١٦٧/٩ من حديث الحميدى ، قال حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدثنا ابن جابر ، قال حدثني عمير بن هانئ ، أنه سمع معاوية ، قال : سمعتُ النبي ﷺ يقول : « لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله ، ما يضرهم من كذبهم ، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » ، فقال مالك بن يخامر : سمعتُ معاذًا يقول : وهم بالشام ، فقال معاوية : هذا مالك يزعم أنه سمع معاذًا يقول : وهم بالشام .

وللفقرة الأخيرة من حديث معاوية شاهد عند البخارى فى : كتاب المناقب : باب : منه ٢٥٢/٤ ، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : باب : قول النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، وهم أهل العلم ١٢٥/٩ ، وكتاب التوحيد : باب : قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ ﴾ [النحل : ٤٠] ، ١٦٧/٩ من حديث المغيرة ابن شعبة مرفوعًا : « لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » ، وفى رواية : « لا تزال طائفة من أمتي . . » ، وفى رواية : « لا يزال من أمتي قوم ظاهرين على الناس ، حتى يأتيهم أمر الله » .

ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب : النهى عن المسألة ٧١٨/٢ ، ٧١٩ ، رقم ٩٨ ، ١٠٠ ، من حديث عبد الله بن عامر اليحصبى ، قال سمعتُ معاوية يقول : « إياكم وأحاديث ، إلا حديثًا كان فى عهد عمر ، فإن عمر كان يخيف الناس فى الله - عزَّ وجلَّ - سمعتُ رسول الله ﷺ وهو يقول : « مَنْ يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين » ، وسمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنما أنا خازن ، فمن أعطيته عن طيب نفس ، فيبارك له فيه ، ومن أعطيته عن مسألة ، وشره ، كان كالذى يأكل ولا يشبع » ، ومن حديث ابن وهب ، عن يونس ، عن ابن شهاب ، عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف ، قال : سمعتُ معاوية بن أبى سفيان - وهو يخطب - يقول : إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ يُرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم ، والله يعطى » ، وكتاب الإمارة : باب : قول النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق » ١٥٢٤/٣ رقم ١٧٤ من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير بن هانئ قال سمعتُ معاوية على المنبر يقول : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم ، حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على الناس » .

ورقم ١٧٥ من حديث جعفر بن برقان ، عن يزيد بن الأصم ، قال : سمعتُ معاوية بن أبى سفيان ذكر حديثًا رواه عن النبي ﷺ لم أسمعه روى عن النبي ﷺ على

منبره حديثاً غيره، قال : قال رسول الله ﷺ : « من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يُقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوهم إلى يوم القيامة»، وله شواهد عند مسلم رقم ١٧٠ من حديث ثوبان مرفوعاً « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك » .

ورقم ١٧١ من حديث المغيرة قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله، وهم ظاهرون»، رقم ١٧٢ من حديث جابر بن سمرة عن النبي ﷺ أنه قال : « لن يبرح هذا الدين قائماً، يقاتل عليه عصابة من المسلمين، حتى تقوم الساعة » .

ورقم ١٧٣ من حديث ابن جريج عن أبي الزبير : أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة » .

ورقم ١٧٦ من حديث عبد الرحمن بن شُماسة المهري ، قال : كنت عند مسلمة ابن مُخَلَّد وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شرُّ من أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم، فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر، فقال له مسلمة : يا عقبة ، اسمع ما يقول عبد الله، فقال عقبة : هو أعلم، وأما أنا فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»، فقال عبد الله : أجل، ثم بيعت الله ربحاً كريح المسك مسهاً مس الحرير، فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضتُهُ ، ثم يبقى شرار الناس ، عليهم تقوم الساعة » .

وأبو داود في : السنن : كتاب الجهاد : باب : في دوام الجهاد ١١/٣ رقم ٢٤٨٤ ولكن من حديث عمران بن حصين، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»، وكتاب الفتن والملاحم : باب : ذكر الفتن ودلائلها ٤/٤٥٠ - ٤٥٢ رقم ٤٢٥٢ من حديث ثوبان مرفوعاً ، وهو حديث طويل آخره : « ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » .

والترمذي في : السنن : كتاب الفتن : باب : ما جاء في الشام ٤/٤٢٠ رقم ٢١٩٢

من حديث معاوية بن قرّة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم ، لا تزال طائفة من أمتي منصورين ، لا يضرهم من خذلهم حتى الساعة » ، وعقّب عليه بقوله : « قال محمد بن إسماعيل : قال علي بن المديني : هم أصحاب الحديث » ، كما عقّب عليه بقوله : « وفي الباب : عن عبد الله بن حوالة ، وابن عمر ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمرو ، وهذا حديث حسن صحيح » ، وباب : ما جاء في الأئمة المضلين من حديث ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، قال : وقال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله » ٤/٤٣٧ ، ٤٣٨ رقم ٢٢٢٩ ، وعقّب عليه بقوله : « وهذا حديث حسن صحيح ، سمعتُ محمد بن إسماعيل يقول : سمعتُ علي بن المديني يقول : وذكر هذا الحديث عن النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق » ، فقال علي : « هم أهل الحديث » ، وكتاب العلم : باب : إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين ٥/٢٨ رقم ٢٦٤٥ من حديث ابن عباس ، وعقّب عليه بقوله : « وفي الباب : عن عمر ، وأبي هريرة ، ومعاوية : هذا حديث صحيح » .

والنسائي في : السنن : كتاب الخيل : باب : ذكر الخيل [٣/٣٥ رقم ٤٤٠١ / الكبرى] من حديث جبير بن نفيير ، عن سلمة بن نفيل الكندي قال : كنتُ جالساً عند رسول الله ﷺ ، فقال رجل يا رسول الله : أذال الناسُ الخيل ، ووضعوا السلاح ، وقالوا : الاجتهاد ، قد وضعت الحرب أوزارها ، فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه ، فقال : « كذبوا الآن ، جاء القتال ، ولا يزال من أمتي أمةٌ يقاتلون على الحق ، ويُزيغ الله لهم قلوب أقوام ، ويرزقهم منه حتى تقوم الساعة ، حتى يأتي وعد الله . . . الحديث » .

وابن ماجه في : السنن : المقدمة : باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم ٨٠ / ١ رقم ٢٢٠ عن بكر بن خلف أبي بشير ، عن عبد الأعلى ، عن معمر ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ، وعقّب عليه البوصيري في : مصباح الزجاجة من زوائد ابن ماجه ١/٣٠ بقوله : « هذا إسناد ظاهر الصحة ولكن اختلف فيه على الزهري ، فرواه النسائي من حديث شعيب عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، وقال الصواب : رواية الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن معاوية كما في الصحيحين » .

ورقم ٢٢١ من حديث هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم، عن مروان بن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حَبَس ، أنه حدَّه قال : سمعتُ معاوية بن أبي سفيان يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الخير عادة ، والشر لجاجة ، ومن يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ، وعقب عليه البوصيري في : مصباح الزجاجة ١ / ٣٠ بقوله : « رواه ابن حبان في صحيحه ، عن طريق هشام بن عمار ، فذكره بإسناده ومثته سواء . . . » .

والدارمي في : السنن : المقدمة : باب : الاقتداء بالعلماء ١ / ٧٣ ، ٧٤ من حديث معاوية ، وابن عباس مرفوعاً بلفظ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ، وكتاب الرقاق : باب : من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ٢ / ٣٩٧ من حديث ابن عباس مرفوعاً بلفظه المذكور آنفاً في : المقدمة .

ومالك في : الموطأ : كتاب القدر : باب : جامع ما جاء في أهل القدر ٢ / ٩٠٠ ، ٩٠١ رقم ٨ من حديث يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي قال : قال معاوية ابن أبي سفيان - وهو على المنبر : « أيها الناس ، إنه لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع الله ، ولا ينفع ذا الجدِّ منه الجدُّ ، من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ، ثم قال معاوية : « سمعتُ هؤلاء الكلمات من رسول الله ﷺ على هذه الأعواد » ، وعقب عليه ابن عبد البر في : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٢٣ / ٧٨ ، ٧٩ بقوله : « وهذا حديث مسند صحيح ، وإن كان ظاهره في هذا الإسناد الانقطاع ، وقد سمع ذلك محمد بن كعب من معاوية ، ذكر ذلك بعض رواة مالك ، عن مالك وهو محفوظ أيضاً من غير طريق مالك » ، بل لقد بين أن له طريقاً أخرى غير طريق مالك ، عن يزيد بن زياد هذا إلى محمد بن كعب القرظي ، قاتلاً : « وقد سمع هذا الحديث ابن عجلان من محمد بن كعب القرظي ، قاتلاً : « وقد سمع هذا الحديث ابن عجلان من محمد بن كعب القرظي » ، ثم ساق هذا الطريق فقال : « حدثنا عبد الوارث بن سفيان ، فقال : حدثنا قاسم بن أصبغ ، قال : حدثنا بكر بن حماد ، قال : حدثنا مسدد ، قال : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن ابن عجلان ، قال : سمعتُ محمد بن كعب القرظي قال : كان معاوية يخطب بالمدينة ، يقول : تعلمن أيها الناس أنه لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، ولا ينفع ذا الجدِّ منه الجدُّ ، من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، سمعتُ هذه الأحرف من رسول الله ﷺ على هذه الأعواد » ، وعقب عليها بقوله : « لم تختلف الرواية - والله أعلم - في هذا الحديث عن محمد بن كعب ، عن معاوية أنه سمع هذا الحديث من رسول الله ﷺ وهي رواية أهل المدينة ، وأما أهل العراق ،

فيروون أن المغيرة بن شعبة كتب بهذا الحديث إلى معاوية، فالله أعلم، وقد يجوز أن يكون قوله: [من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين] سمعه معاوية من رسول الله ﷺ فأشار إليه؛ لأن ذلك ليس في حديث المغيرة، وسأثره في حديث المغيرة، وعلى هذا التخريج تصح الأحاديث في ذلك، لأنها منقولة بأسانيد صحاح، والحمد لله.

وأحمد في: المسند ٤/٩٢، ٩٣، ٩٨، ٩٩، والطحاوي في مشكل الآثار ٢/٢٧٩، والطبراني في: المعجم الكبير ١٩/٨١٥، والقضاعي في: مسند الشهاب، ص ٩٥٤ من طرق عن سعد بن إبراهيم، عن معبد الجهني عن معاوية مرفوعاً به، وزيادة: «... وإن هذا المال خضر حلو، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح فإنه الذبح» إلا الجملة الأولى من هذه الزيادة فليست عند القضاعي، وهذا الإسناد رجاله ثقات غير معبد بن خالد الجهني، فإنه: [صدوق مبتدع] أول من أظهر القدر بالبصرة، انظر: تقريب التهذيب، ص ٩٥٧، رقم ٦٨٢٥ فيكون هذا الحديث حسن الإسناد.

وأحمد في: المسند ٤/٩٢، ٩٣، ٩٦ والدارمي في: السنن ١/٧٤، والطبراني في: المعجم الكبير ١٩/٨٦٠، وأبو نعيم في: حلية الأولياء ٥/١٤٦، ١٤٧، والخطيب البغدادي في: الفقيه والمتفقه ١/٦، والطحاوي في: مشكل الآثار ٢/٢٨٠ من طريق عبد الله بن محيريز، عن معاوية مرفوعاً بلفظ: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين»، وهذا إسناد رجاله ثقات فهو صحيح.

ويظهر من هذا التخريج: أن الحديث مخرَّج في الصحاح، والمسانيد والسنن، والأجزاء ونحوها، وأنه متعدد المخارج عن معاوية، وأبي هريرة وجابر بن سمرة، وجابر بن عبد الله، وعقبة بن عامر، وعمران بن حصين، وثوبان، وعبد الله بن عباس، وعمر بن الخطاب، وغيرهم، وأن الأمة تلقته بالقبول فيكون متواتراً تواتراً معنوياً.

المعنى العام للحديث:

الأمانة التي حُمِّلناها - نحن المسلمين - إنما هي الشهادة على العالمين، إذ يقول الحق - تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...﴾ [الحج: ٧٨].

وتلك أمانة ضخمة وعظيمة ، إذ هى تعنى أن تكون أسوة وقدوة فى أعين العالمين :
نعمر الأرض حتى نسود فيها ، ونزل على حكم ربنا فى كل ما نأتى ، وفى كل ما ندع ،
ثم نبلغ كلمة الله إلى عباد الله بكل ما يمكن من أساليب ووسائل شريطة ألا تتعارض
مع مبادئ الدين الحنيف ، مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴾ [النحل : ١٢٥] ، ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ
يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ... ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ،
ونقف بحزم وقوة فى وجه الكفَّار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً
لثلاً يكون هناك ضغطٌ أو إكراه لواحد من الناس ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

فإذا ما أضيفَ إلى ذلك طول الطريق مع كثرة العقبات والمعوقات : من النَّفسِ
الأمَّارة بالسوء ، ومن شيطان الجنِّ القاعد لنا بكل طريق ، ومن شياطين الإنس الذين
هم أعوان شيطان الجن ، ومن الدنيا بيريقتها ، وزخارفها ، وزيناتها ، وشذائدها
ومصائبها ، وامتحاناتها ، إذا ما أضيف إلى هذه الأمانة ذلك كله ظهر أننا بحاجة ماسَّة
إلى ما يُثبَّتُ أقدامنا على الطريق ، ويُذهب عنّا وعثاء السفر ، ولا شك أن هناك عوامل
كثيرة تساعد على ذلك :

يبيد أن أهمَّها وأبرزها الثقة النفسية بالفوز والنجاح فى أداء هذه الأمانة ، والوصول
بها إلى برِّ السلامة وشاطئ الأمان ، والحديث الذى نحن بصدد شرحه وبيانه الآن :
وعدُّ أكيدٌ من الله لهذه الأمة بهذا الفوز ، وذلك النجاح أجراه سبحانه على لسان نبيه
المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، الأمر الذى يزرع الثقة فى النفوس ، فثبتت على
الطريق ، وتجاوز العقبات والمعوقات .

ومن عجب أن النبى ﷺ دلَّ - وهو يحكى هذا الوعد - على ما يكون سبباً فى
تحقيقه ، والظفر به فى دنيا الناس ، ألا وهو الفقه فى الدين ، إذ قال : « من يرد الله
به خيراً يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى ، ولن تزال طائفة من أمتى
ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتى أمر الله ، وهم على
الحق ظاهرين » ، وحتى تتضح معالم الحديث بصورة أجلى وأظهر ، فإننا سنتناوله من
هذه الجوانب :

الجانب الأول : معانى المفردات والجمل :

قوله : « من يُرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » :

الفقه لغة : يختلف المراد به تبعاً لماضيه ، فإذا كان ماضيه بكسر العين ، فالمراد به الفهم ، تقول : فقهَ المسألة يفقهها فقهاً : فهمها ، وإذا كان ماضيه بالفتح فالمراد به سبق الغير إلى الفهم ، تقول : فقهَ المسألة : يفقهها فقهاً : سبق غيره إلى فهمها ، وإذا كان ماضيه بضم العين ، فالمراد به : السجية أو الملكة ، تقول : فقهَ المسألة يفقهها فقهاً إذا صار هذا الفقه سجيةً له وملكةً (١) ، ولا تعارض بين هذه المعانى جميعاً ، إذ الفقه مراتب ، فأدنى هذه المراتب : مجرد الفهم ، ولو بعد حين ، وأوسطها سبق الغير ، وأعلاها أن يصبح سجيةً وملكةً .

الفقه اصطلاحاً : عند الفقهاء : العلم بالأحكام الشرعية العملية ، المكتسبة ، من الأدلة التفصيلية لتلك الأحكام ، فيشمل هذا التعريف : العلم بأحكام العبادات المخصوصة من : الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والجنائز ، بالإضافة إلى أحكام النظم والتشريعات من : الزواج ، والطلاق ، والنفقة ، والحضانة ، والعدة ، والميراث ، والمعاملات المالية : كالبيع ، والسلم ، والرهن ، والإجارة ، والمضاربة ، ونحوها ، وأحكام الدماء ، والحدود ، والجهاد ، والاسترقاق ، وغيرها ، وخرج ما يتصل بالعقائد ، وكذلك ما يتصل بالأداب والأخلاق .

الفقه اصطلاحاً عند الأصوليين : يطلق الفقه عند الأصوليين على ثلاثة معان هي :

١ - معرفة كل ما جاء عن الله سبحانه وتعالى : عقيدة ، وعبادة مخصصة وأخلاقاً ، ونظماً ، وتشريعات ، وهذا المعنى مرادف للفظ « الشرع » ، ويتناول ما عرف بعد ذلك باسم علم العقيدة ، وعلم الفقه ، وعلم الأخلاق .

٢ - العلم بالأحكام الفرعية الشرعية المستمدة من الأدلة التفصيلية يستوى فى ذلك عمل الجوارح ، وعمل القلوب ، ويتناول علم الفقه وعلم الأخلاق .

٣ - العلم بالأحكام الشرعية الفرعية العملية المستمدة من الأدلة التفصيلية وكأنهم خصوا الفقه بأعمال الجوارح دون أعمال القلوب (٢) .

(١) انظر : القاموس المحيط ٤/٤١٤ ، ٤١٥ ، وفتح البارى لابن حجر ١/١٦٢ ، ١٦٣ ، والمعجم الوسيط ٢/٦٩٨ بتصرف .

(٢) انظر : الموسوعة الفقهية ١/١٢ - ١٤ بتصرف كثير .

والمراد بالفقه في الحديث : المعنى الأول عند الأصوليين لتناوله كل ما جاء به الشرع الخفيف من عقائد ، وشعائر مخصوصة ، ونظم وتشريعات وأخلاق وآداب .

الدين لغة : يطلق الدين لغة على معانٍ ، منها :

١ - الخضوع والذل ، تقول : دان ديناً ، وديانةً : خضع وذلَّ .

٢ - الطاعة ، تقول : دان يدين ديناً وديانةً : أطاع .

٣ - الجزاء ، تقول : دان فلان فلاناً : حاسبه ، وجزاه (١) .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعاً ، إذ الدين خضوع وانقياد ، وطاعة تقتضى الحساب والجزاء .

والدين اصطلاحاً . اسم لجميع ما يعبد به الله - عز وجل - من العقائد ، والعبادات والأخلاق ، والنظم ، والتشريعات .

وقد جاء في كتاب الله على معانٍ ، منها :

١ - الشريعة والحكم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ... ﴾

[النور : ٢]

٢ - الطاعة والانقياد ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَأَصْبًا ﴾ [النحل : ٥٢] .

٣ - الجزاء أو الحساب ، قال تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾ [الفاتحة] .

٤ - التوحيد ، قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ... ﴾ [الزمر : ٣] (٢) .

قوله : « وإنما أنا قاسم والله يعطي » :

قال الإمام النووي - رحمه الله : « معناه أن المعطى حقيقة هو الله تعالى ولست أنا معطياً ، وإنما أنا خازن على ما عندي ، ثم أقسم ما أمرتُ بقسمته على حسب ما أمرت به ، فالأمور كلها بمشيئة الله تعالى وتقديره ، والإنسان مُصَرَّفٌ مريبٌ » (٣) .

(١) انظر : القاموس المحيط لفيروزآبادي ٤/ ٣٢٠ ، ٣٢١ ، والمعجم الوسيط ١/ ٣٠٦ بتصرف كثير .

(٢) انظر عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ، للشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمِين الحلبي ٢/ ٣٢ - ٥٤ ، والكليات لأبي البقاء الكفوي ، ص ٤٤٣ ، ٤٤٤ .

(٣) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٧/ ١٢٨ ، ١٢٩ م ٤٠ .

وقال ابن حجر - رحمه الله : « والمعنى لا أتصرف فيكم بعتية ولا منع برأى »
بدليل رواية : « إنما أنا القاسم أضع حيث أمرت » أى لا أعطى أحداً ولا أمنع أحداً إلا
بأمر الله « (١) .

وقال فى موضع آخر : « فيه إثبات الخير لمن تفقه فى دين الله ، وأن ذلك لا يكون
بالاكتساب فقط بل لمن يفتح الله عليه به . . . » (٢) .

وقال المناوى - رحمه الله : « إن إثبات الخير للمتفقه لا يكون بالاكتساب فقط ، بل
لمن يفتح الله عليه به على يد المصطفى ﷺ ثم ورثته » (٣) .

والمقسّم أو المعطى محذوف فهل يراد به المال ، كما فسرتة إحدى روايات مسلم
ولفظها : « إنما أنا خازن ، فمن أعطيته عن طيب نفس فيبارك له فيه ، ومن أعطيته عن
مسألة ، وشره كان كالذى يأكل ولا يشبع » ، وكأنّ المعنى أنا خازن المال ، وأسوى بينكم
فى العطاء ، والبركة أو عدمها عطاء من الله تبعاً للقتاعة والرضا ، وكذلك التكالب
والشره .

أم يراد به الفقه فى الدين ؟ وله :

١ - جانب كسبى يبذل العبد فيه جهده قدر المستطاع ، وهو المشار إليه بقوله ﷺ :
« إنما أنا خازن ، وقاسم » ، يعنى : جعلنى الله وعاءً لوحيه المنزل ، ومبيئاً .

٢ - جانب وهبى يمنحه الله العبد كثمرة للجانب الكسبى .

وقد جاءت رواية النسائى عن سلمة بن نفيل الكندى متضمنة صورة من صور الفقه
فى الدين بجانبه الكسبى والوهبى ، إذ يقول : كنتُ جالساً عند رسول الله ﷺ فقال
رجل : يا رسول الله : أذال الناسُ الخيل ، ووضعوا السلاح ، وقالوا : الاجتهادُ قد
وضعت الحرب أوزارها ، فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه ، فقال : « كذبوا ، الآن جاء
القتال ، ولا يزال من أمتى أمة يقاتلون على الحق ، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ،
ويرزقهم منه حتى تقوم الساعة ، أو حتى يأتى وعد الله . . . » الحديث .

فقد اجتهد نفرٌ من أصحاب النبى ﷺ بعد الهجرة أنه انتهت الحرب ، وعليهم أن
يضعوا السلاح وأن يفرغوا لمعاشهم ، وهنا أقبل عليهم رسول الله ﷺ مبيئاً لهم خطأ

(١) انظر : فتح البارى شرح صحيح البخارى ٢١٨/٦ .

(٢) انظر : فتح البارى ١/١٦٢ . (٣) انظر : فيض القدير ٦/٢٤٢ .

اجتهادهم من أنه ليس معنى قيام الدولة انتهاء الجهاد بل بدايته، لأن الأعداء لا يرضيهم أبداً قيام دولة الإسلام وسيحاربونها بكل ما يستطيعون، وعليهم أن يستمروا فى الجهاد، ولئن قعدوا وتركوا فهناك طائفة من هذه الأمة يقاتلون على الحق والله يلقى بهم الرعب فى قلوب الأعداء، ويرزقهم الأجر والمغانم وإن ظلوا أحياء، والجنة والرضوان إن ماتوا شهداء، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٧٤) [النساء]، وقوله ﷺ: « تكفل الله لمن جاهد فى سبيله، لا يخرج منه من بيته إلا جهاد فى سبيله، وتصديق كلمته بأن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة » (١)، وسيبقى الأمر كذلك إلى قيام الساعة، أو ذهاب أهل الخير، وبقاء شرار الخلق الذين عليهم تقوم الساعة .

قوله: « لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله ... »، وفى رواية: « لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله ... » .

« الطائفة » : جماعة من الناس يجمعهم مذهب، أو رأى يمتازون به (٢) .

(و الأمة) : تطلق على معانٍ كثيرة، منها :

١ - المرء الجامع لخصال الخير، قال تعالى عن إبراهيم ﷺ: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٢٠) [النحل] .

٢ - الدين والملة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

٣ - الحين والزمان، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : ٤٥] (٣) .

٤ - كل جماعة يجمعها أمر أو دين ، أو زمان ، أو مكان واحد ، سواء أكان الأمر الجامع تسخيراً أم اختياراً (٤) ، فيقال : أمة الطير، وأمة الجن، وأمة الإنس، وأمة العرب، وأمة العجم، وأمة الدعوة، وأمة الإجابة... ونحوها .

(١) الحديث سبق تخريجه فى الجزء الثانى ص ٣٢٧، ٣٢٨ .

(٢) انظر : المعجم الوسيط ٥٧١/٢ .

(٣) انظر : الكلبيات لأبى البقاء الكفوى ، ص ١٨١ ، ١٨٢ ، والمعجم الوسيط ٢٧/١ بتصرف .

(٤) انظر : الكلبيات ، ص ١٧٦ ، والمعجم الوسيط ٢٧/١ بتصرف .

ولعل هذا المعنى الأخير هو المراد في الحديث، يعنى سيظل جماعة من هذه الامة قائمين بأمر الله غير مبالين بالمخالف والمعارض، والمناوئى إلى أن يقض الله أمراً كان مفعولاً .

قوله : « قائمة بأمر الله » :

يعنى مستمسكة بدين الله، ناشرة له، مجاهدة فى سبيله، حامية له من كيد الكائدين، وعبث العابثين، إذ الأمر هنا معناه : الدين .

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ

اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٤٨] .

ويؤكد ذلك رواية جابر بن سمرة عند مسلم - وقد مرّت فى تخريج الحديث - أن النبى ﷺ قال : « ولن يبرح هذا الدين قائماً ، يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة » .

قوله : « حتى يأتى أمر الله » :

المراد بأمر الله هنا : حكمه ، وقضاؤه ، قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ... ﴾ [الاعراف : ٥٤] ، وإنما يكون ذلك عندما يرسل الله ريحاً طيبة تكون سبباً فى قبض أرواح المؤمنين، ويومها لا يبقى سوى الكافرين أو شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة، كان المعنى : حتى يأتى أمر الله قرب قيام الساعة ، وقد جاء هذا مفسراً فى رواية عبد الرحمن بن شماسه المَهْرى عند مسلم - وقد تقدّمتُ - قال : كنتُ عند مسلمة بن مخلد - وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص - فقال عبد الله : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، هم شرٌّ من أهل الجاهلية ، لا يدعون الله بشيء إلا ردّه عليهم » ، فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر فقال له مسلمة : يا عقبة ، اسمع ما يقول عبد الله، فقال عقبة : هو أعلم ، وأما أنا فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيتهم الساعة وهم على ذلك » ، فقال عبد الله : « أجل ، ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك، مسّها مسُّ الحرير، فلا تترك نفساً فى قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة » .

وجاء مفسراً أكثر فى رواية عمران بن حصين عند أبى داود - وقد مضت - قال :

قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ، ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال » .

وبذلك يُدفعُ ما أشكل به بعضُ الناس على هذا الحديث من قولهم : كيف تظل هذه الفتنة قائمة بأمر الله إلى قيام الساعة مع أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الحق ؟
الجانب الثاني : فوائد الفقه في الدين وثمراته كما وردت في الحديث :

للفقه في الدين فوائد كثيرة وثمرات جمّة نذكر منها :

١ - أنه طريق لمعرفة الله حق المعرفة، وما له وحده على عباده من العبادة المتمثلة في التوحيد والطاعة والالتزام، والخشية والخوف والرجاء .

قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ ... ﴾ [آل عمران : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

٢ - أنه طريق لمعرفة حكم الله لاسيما في الغامض من المسائل، وكذلك في المسائل الطارئة فيبقى دين الله مواكبًا لكل الظروف والأزمات والبيئات .

قال تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] ، والأنبياء : [٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ ... ﴾ [النساء : ٨٣] .

٣ - أنه طريق لتمييز الأصيل في منهج الله من الدخيل عليه ، بحيث يعمل بالأصيل ويستمسك به، ويهمل الدخيل ولا يُعبأ به .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمْ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [٥١] الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ [٥٢] وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ [٥٣] [القصص] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا [١٠٧] وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا [١٠٨] وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزِيدُهُمْ خُشُوعًا [١٠٩] ﴾ [الإسراء] ، ذلك أنهم عرفوا قيمته فاستمسكوا به .

٤ - أنه يكون سببًا في رفعة صاحبه وعلو منزلته .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٣٠]

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ [البقرة] ، وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ... ﴾ [المجادلة : ١١] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... ﴾ [الزمر : ٩] .

وقال عليه السلام : « العلماء ورثة الأنبياء » (١) .

يقول أبو حامد الغزالي معلقاً ، ومعقياً : « ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة » (٢) .

٥ - أن يكون سبباً في ترتيب الأمور ، ورعاية الأولويات ، بحيث لا يضيع مجمع عليه من أجل مختلف فيه ، أو يضيع فرض من أجل سنة ، أو يرتكب محظور في سبيل مباح ، أو يهمل أصل من أجل أمر ثانوي وهكذا .

(١) الحديث جزء حديث طويل أخرجه أبو داود في : السنن : كتاب العلم : باب : الحث على طلب العلم ٥٧/٤ ، ٥٨ رقم ٣٦٤١ ، والترمذي في : السنن : كتاب العلم : باب : ما جاء في فضل الفقه على العبادة ٤٧/٥ ، ٤٨ رقم ٢٦٨٢ ، وابن ماجه في : السنن : المقدمة : باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم ٨١/١ رقم ٢٢٣ ، والدارمي في : السنن : المقدمة : باب : في فضل العلم والعالم ٩٨/١ ، وأحمد في : المسند ١٩٦/٥ كلهم من حديث كثير بن قيس قال : كنتُ جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فجاءه رجل ، فقال : يا أبا الدرداء ، إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ ، ما جئت لحاجة ، قال : فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

« من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » ، وعقب الترمذي بقوله : « ولا تعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة ، وهو ليس عندي بمتصل هكذا : حدثنا محمود بن خداش بهذا الإسناد ، وإنما يروى هذا الحديث عن عاصم بن رجاء بن حيوة ، عن الوليد بن جميل ، عن كثير بن قيس ، عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ ، وهذا أصح من حديث محمود بن خداش ، ورأى محمد بن إسماعيل هذا أصح » ، وقد روى أبو داود ، وابن ماجه الحديث على هذا النحو الذي رضى الترمذي ، غير أنهما قالا : « داود بن جميل » بدل : « الوليد بن جميل » وهو - أي : « داود » أو « الوليد » - كما قال ابن حجر في تقريب التهذيب ، ص ٣٠٥ رقم ١٧٨٨ : « ضعيف » .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ٥/١ .

ولعل في حديث جريج ما يشرح ذلك، إذ فيه : « أنه كان يصلى في صومعته، وكانت أمه تأتيه، فتناديه فيشرف عليها فيكلمها، فأنته يوماً وهو في صلاته، فنادته، قالت: أى جريج، أشرف على أكلمك أنا أمك، فقال : أجيها، أو أصلى ؟ » .

وفي رواية أنه قال : « يا رب أمى وصلاتى، فاختر صلواته، فرجعت، ثم أنته فصادفته يصلى، فقالت : يا جريج أنا أمك فكلمنى، فقال مثله، فدعت عليه قائلة : اللهم لا تُمته حتى تُريه وجوه المومسات » (١) .

وجاء في حديث يزيد بن حوشب، عن أبيه رفعه : « لو كان جريج عالماً لعلم أن إجابة أمه أولى من صلاته » (٢) .

قال الحافظ ابن حجر : « وفيه أن الأمرين إذا تعارضا بُدئ بأهمهما » (٣) .

٦ - وأنه يكون سبباً في اقتلاع جذور اليأس والقنوط من نفوس العصاة والمذنبين ، بل زرع الأمل والثقة في هذه النفوس .

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان في بنى إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ثم خرج يسأل، فأتى راهباً فسأله، فقال له : هل من توبة ؟ قال : لا ، فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل : ائت قرية كذا، وكذا، فأدركه الموت فناء بصدرة نحوها، فاخصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقرّبي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدى، وقال : قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له » (٤) .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح، كتاب الصلاة: باب : إذا دعت الأم ولدها فى الصلاة ١٢٧/٤ [فتح البارى] : وكتاب المظالم : باب : إذا هدم حائطاً فلين مثله ١٧٩/٣، وكتاب الأنبياء: باب : قول الله : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ ٢٠١/٤، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البير والصلة ، والآداب : باب : تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها ١٩٧٦/٤ - ١٩٧٨ رقم ٧/٢٥٥٠ ، ٨ ، وأحمد فى المسند ٣٠٨/٢ ، ٢٨٥ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ وبنحوه .

(٢) أورده ابن حجر فى : فتح البارى ١٢٨/٤، وعزاه إلى الحسن بن سفيان وغيره، وعقب عليه بقوله : «ويزيد هذا مجهول» .

(٣) انظر : فتح البارى ٣١٦/٨ .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأنبياء : باب : منه ٢١١/٤ ، ٢١٢ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب التوبة : باب : قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ٢١١٨/٤ ، ٢١١٩ رقم ٤٦/٢٧٦٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الديات : باب : هل لقاتل مؤمن توبة ٨٧٥/٢ رقم ٢٦٢٢ ، وأحمد فى : المسند ٢٠/٣ كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى .

قال ابن حجر : « وفيه فضل العالم على العابد ؛ لأن الذي أفناه أولاً بأن لا توبة له غلبت عليه العبادة، فاستعظم وقوع ما وقع من ذلك القاتل من استجرائه على قتل هذا العدد الكثير، وأما الثاني فغلب عليه العلم، فأفناه بالصواب، ودله على طريق النجاة» (١) .

٧ - أنه يكون طريقاً لمعرفة ثمار الطاعة والاستقامة في الدنيا والآخرة . وكذلك معرفة عواقب المعصية والانحراف في الدنيا والآخرة، فيكون الحرص على الطاعة والاستقامة، ويكون الفرار من المعصية والبعد عن الانحراف .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾ [القصص] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [الأنعام : ١٥ ، والزمر : ١٣] .

٨ - أنه يكون طريقاً لمعرفة قيمة الوحي المنزل من عند الله . وسبيل التعامل معه .

قال تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) ﴾ [سبا] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾ [الحج] .

٩ - أنه يكون طريقاً لمعرفة العوالم والمخلوقات الأخرى التي تعتبر معنا ، ولا نراها، وكيفية التعامل مع هذه العوالم، والمخلوقات .

قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ﴾ [فاطر] ، وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) ﴾ [الرحمن] ، وقال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾ [الاعراف] .

١٠ - أنه يكون طريقاً لمعرفة العقاب والمنصير بحيث يأخذ المرء أهبطه واستعداده .

قال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ [يونس] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَلِ اعْمَلُوا فَيَسِّرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة] .

١١ - أنه يكون سبباً في معرفة التعامل مع ما قضى الله للعبد من خير أو شر .

قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَخْلُونَ بِأَمْرٍ مِنَ النَّاسِ بِالْخُلِّ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ [الحديد] ، وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن] .

وقال عليه السلام : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خيرٌ - وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن - إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبراً ، فكان خيراً له » .

١٢ - أنه يكون سبباً في معرفة الكفاية لشيئاً - وسبيل التعامل مع هذه الكفاية .

روى البيهقي بسنده إلى حاطب بن أبي بلتعة ، قال : « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس ملك الإسكندرية ، قال : فحييته بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزلني في منزله ، وأقمت عنده ، ثم بعث إلى وقد جمع بطارقه ، فقال : إنى سأكلمك بكلام ، وأحب أن تفهمه منى ، قال : قلت هلم ، قال : أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي ؟ قلت : بلى هو رسول الله - ، قال : فما له حيث كان هكذا لم يدعُ على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها ؟ قال : فقلت : عيسى بن مريم أليس تشهد أنه رسول الله ؟ فما له حيث أخذ قومه ، فأرادوا أن يغلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله - عز وجل - حتى رفعه الله إليه في السماء الدنيا ؟ قال : أنت حكيم جاء من عند حكيم . . . الحديث » .

الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الزهد والرقائق : باب : المؤمن أمره كله خير ٢٢٩٥/٤ رقم ٦٤/٢٩٩٩ ، وأحمد في : المسند ٣٣٢/٤ ، ٣٣٣ .
انظر : دلائل النبوة ٣٩٦/٤ .

١٣ - وأنه يكون سبباً في معرفة أنجح أساليب الدعوة إلى الله وأفعالها بحيث تقام الحججة على المعاندين والمصرين، ويستقطب المتقون .

قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) ﴾ [الأعراف] .

١٤ - وأنه يكشف لصاحبه أفضل العبادة فيكون الحرص على هذا الأفضل .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ [آل عمران] .

١٥ - وأنه يكون سبباً في نيل الأجر والثواب ، وبالتالي الحياة الطيبة في الدنيا ، والجنة في الآخرة .

قال عليه السلام : « من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً ، أو يُعلمه كان له كأجر حاج تاماً حجته » (١) .

وقال أيضاً : « من طلب علماً فأدرکه كتب الله له كفلين من الأجر ، ومن طلب علماً فلم يدرکه كتب الله له كفاً من الأجر » (٢) .

وقال عليه السلام كذلك : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً ، سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض ، حتى الحيتان في الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ... » الحديث (٣) .

(١) الحديث أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب : كتاب العلم : باب : الترغيب فى الرحلة فى طلب العلم ١٤٠ / ١ من حديث أبى أمامة مرفوعاً ، وعقب عليه بقوله : « رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد لا بأس به » ، كما أورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد ١ / ١٢٢ ، ١٢٣ قائلًا : « رواه الطبرانى فى الكبير ، ورجاله موثقون » .

(٢) الحديث أورده المنذرى فى : الترغيب والترهيب ١ / ٩٦ ، والهيثمى فى : مجمع الزوائد ١ / ١٢٣ كلاهما من حديث وثالة بن الأسقع مرفوعاً ، وعقباً عليه بقولهما : « رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله موثقون » .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب العلم : باب : الحث على طلب العلم ٢ / ٢٨٥ ، والترمذى فى : السنن : كتاب العلم : باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ٥ / ٤٨ ، ٤٩ رقم ٢٦٨٢ ، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب : فضل العلماء ١ / ٨١ رقم ٢٢٣ ، وأحمد فى : المسند ٥ / ١٩٦ كلهم من حديث أبى الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً بهذا اللفظ ، ونحوه .

وباختصار هو الطريق لإيجاد الطائفة التي ذكرت في الحديث آنفاً : « ولن تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتيهم أمر الله، وهم على الحق ظاهرون » .

الجانب الثالث : منزلة الفقه في الدين من الإسلام كما في الحديث :

وللفقه في الدين منزلة رفيعة من الإسلام، حسبنا أنه مأمور به صراحة وضمنًا بطريق غير مباشر وغير مباشر .

فمن الأوامر الدالة على ذلك صراحة وبطريق مباشر : قوله ﷺ : « اغد عالمًا أو متعلمًا، أو مستمعًا، أو مجابًا، ولا تكن الخامسة فتهلك » (١) .

إذ هذا أمرٌ صريحٌ مباشر، والأمر عند إطلاقه يفيد معنى الوجوب ما لم تكن هناك قرينة تصرفه عن الوجوب إلى غيره، ولا قرينة هنا . . .

ومن الأوامر الصريحة غير المباشرة قوله تعالى : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق] ، وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾ [طه] .

فإن هذا أمرٌ صريحٌ غير مباشر ؛ لأنه في الظاهر خطاب للنبي ﷺ، وحقيقة الحال أنه خطابٌ لنا، إذ خطابه ﷺ خطابٌ لأمته، ما لم تكن هناك قرينة تقول إن هذا من خصوصياته ﷺ، ولا قرينة هنا .

ومن ذلك قال تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ... ﴾ [المجادلة : ١١] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩) ﴾ [الزمر] .

وقال ﷺ : « من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين . . . » الحديث (٢) ، « إذا أراد الله بعبد خيرًا فقهه في الدين، وألهمه رشده » (٣) ، « الناس معادن فخيرهم في الجاهلية خيرهم في الإسلام إذا فقهوا » (٤) ، « من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة . . . » (٥) ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي جاءت بلفظ

الحديث أورده الهيثمي في : مجمع الزوائد ١/١٢٢ من حديث أبي بكر مرفوعًا وعقب عليه بقوله :

«رواه الطبراني في الثلاثة - أي : في معاجمه الثلاثة - والبخاري ورجاله موثقون » .

... هذه الأحاديث سبق تخريجها .

الخير غير أن المراد بها الأمر تطبيقاً للقاعدة الأصولية المعروفة من أن : « كل فعل كسبي عظّمه الشرع، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به أو حبه فاعله . . . إلخ فهو مأمورٌ به » (١) .

كأنه قال هنا : « كونوا من المؤمنين ومن أوتوا العلم حتى تُرْفَعُوا درجات » ، و«كونوا ممن يعلمون لثلاثا تتساووا بمن يجهلون » ، و« تفقهوا في الدين ولو كنتم من خيار الناس في الجاهلية، فإن الفقه في الدين يجعلكم خياراً في الإسلام » ، و« اسلكوا الطرق إلى العلم ليسهل الله لكم بهذا العلم طريقاً إلى الجنة » ، وهلم جرا .

وهكذا تتضاف الأدلة على وجوب الفقه في الدين، والسؤال هو : هل هذا الفقه عينى يعنى على كل واحد أن يلزمه وأن يتحلى به، أم كفائى يعنى إذا قام به البعض سقط الإثم أو الحرج عن الباقيين ؟

وظاهر الحال ، وأيضاً فقه المسلمين الأوائل لهذه المسألة : أن منه ما هو عينى ومنه ما هو كفائى .

أما العينى فما يتصل بالعقيدة من الإيمان بالله، والملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقدر، وكذلك ما يتصل بالعبادات المخصوصة من الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والعمرة، والمعاملات المالية، وشؤون الأسرة من الزواج والطلاق، والنفقة والحضانة، والعدة، والإرث، وحماية الدماء، والأعراض، والجهاد، والأخلاق حسنة، وسيئة .

والمراد بالفقه العينى لهذه القضايا : معرفتها معرفة كلية يقينية تمكنه من الالتزام، والتنفيذ، والتطبيق على الفور، ثم يطلب الدليل لكل قضية من هذه القضايا على التراخى، وبالتدرج حتى يستوفى أدلة هذه القضايا جميعاً بصورة تحميه من تركها تحت ضغط الشدة والرخاء .

وأما الكفائى فهو التعمق فى معرفة قيمة الدليل صحته، وسلامة من التعارض وإنزالاً على الواقع، وكذلك معرفة دقائق هذه القضايا إلى حدّ الوصول إلى الفقه الاجتهادى فى قضية أو أكثر، وبلد أو أكثر، وربّما إلى الفقه الاجتهادى المطلق، وبذلك يصير هذا الفقه الاجتهادى المطلق قادراً على مواكبة كل ما يظهر من الحوادث، والوقائع، وضبطها بضوابط الشرع الحنيف .

(١) انظر : الإمام فى بيان أدلة الأحكام، للعلز بن عبد السلام، ص ٨٧، ٨٨، ١٠٢ .

وعندئذ يمكن التوفيق بين حديث : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (١) وبين قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٢) [التوبة] .

يقول الحافظ أبو عمر بن عبد البر : « قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ . . . والطائفة في لسان العرب : الواحد فما فوقه » (٢) .

الجانب الرابع : أهم أصول الفقه في الدين وقواعده وطريق توفيق الله العبد لتحصيله :

وللفقه في الدين أصول وقواعد يقوم عليها، وأهمها :

- ١ - اليقين أن الإسلام دين يشمل مظاهر الحياة جميعاً في كل شأن من شؤونها، وكل ناحية من نواحيها، فهو عقيدة، وعبادة، وأخلاق، ونظم وتشريعات .
- ٢ - القرآن الكريم، والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان في التشريع الإسلامي، إما نصاً، وإما استنباطاً بشروطه الصحيحة المتعارف عليها بين العلماء .
- ٣ - اللغة العربية ضرورة لا بد منها للفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ .

٤ - الاطلاع على فقه العلماء من عصر الصحابة إلى وقتنا هذا، فإن الله قد منحهم نوراً وبصيرة في الفقه لتقواهم، وتمكنهم من هذا الفقه، وبصيرتهم بواقعهم وواقع الآخرين المحيطين بهم .

٥ - جمع النصوص المتعلقة بأى مسألة من المسائل، ثم دراستها في ضوء بعضها البعض، ومحاولة التوفيق بين المتعارض منها إما بالجمع، وإما بالترجيح وفق القواعد المتعارف عليها بين العلماء .

٦ - اختلاف العلماء في الفقه في غير المجمع عليه ظاهرة صحية لتفاوت العقول في الفقه، ولتباين الأدلة من ناحية الاطلاع عليها، وعدم الاطلاع، ومن ناحية ثبوتها وعدم ثبوتها، ومن ناحية تغير جهة الدلالة، وتغير الواقع من بيئة إلى بيئة . . . ومن حال إلى حال .

(١) انظر : صحيح الجامع الصغير للالباني ٧٢٧/٢ رقم ٣٩١٤ .

(٢) انظر : جامع بيان العلم وفضله ٥٦/١ - ٥٩ .

٧ - لا يصح اتخاذ الخلاف المذكور آنفاً سبيلاً للتفرق في الدين، أو الخصومة والبغضاء، ولا بأس من التحقيق العلمى النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله، والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجبر ذلك إلى المراء المذموم، والتعصب.

٨ - سؤال أهل الذكر عند الجهل، وتعذر الوصول إلى الحقيقة . قال تعالى :
﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٤٣] ﴿ [النحل] .

الطريق إلى توفيق الله العبد للفتحه في الدين وتحصيله :

وتتمثل هذه الطريق في :

١ - الإخلاص مع اتباع السنة أو التقوى ، فإن ذلك يكون سبباً في منح الله للعبد فرقاتاً، ونوراً . قال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [١١٠] ﴿ [الكهف] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ... ﴾ [الأنفال : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ ... ﴾ [الحديد : ٢٨] .

٢ - التواضع ورد الفضل في كل شيء إلى الله . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور] ، وقال تعالى على لسان شعيب عليه السلام : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [٨٨] ﴿ [هود : ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [١٠٧] ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [١٠٨] ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [١٠٩] ﴿ [الإسراء] .

وقال النبي ﷺ : « من تكبر وضعه الله، ومن تواضع رفعه الله » ^(١) .

وقال الشعبي : « صلى زيد بن ثابت على جنازة، فقربت إليه بغلته ليركبها ، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد : خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ ، فقال

^(١) الحديث أورده العراقي في : المفضى عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار ٤٥/١ ، وعقب عليه بقوله : « أخرجه الخطيب من حديث عمر بإسناد صحيح ، وقال : غريب من حديث الثوري ، وابن ماجه نحوه من حديث أبي سعيد بسند حسن » .

ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء، فقيل زيد بن ثابت يده، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل ببيت نبينا ﷺ» (١) .

٣ - الصبر والتحمل ، فإن فقه المسائل وأدلتها، وحفظها شاق وصعب على النفوس، ومواجهة ذلك إنما يكون بالصبر والتحمل وطول النفس، قال تعالى عن الحوار الذى دار بين موسى ﷺ وبين العبد الصالح : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَٰ رُشْدًا ۖ ﴾ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) ﴿ [الكهف] .

٤ - التمتع بقدر من الذكاء والفطنة ونعنى بذلك الجانب المكتسب لا الفطرى ؛ لأن الفطرى هبة من الله - عز وجل - لا مدخل لأحد فيه ، ويحصل ذلك للمرء بالتجارب والإفادة من الخطأ، وكذلك مخالطة الآخرين، والإفادة من خبراتهم، والوضع فى المسؤولية منذ نعومة الأظفار، والبعد عن المعاصى والسيئات صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، والتوبة منها فوراً بغير تسويف عند اقترافها، ودوام المطالعة والمذاكرة، وكثرة السؤال، وتعلم كيفية التصنيف والتأليف، وعارسة ذلك شيئاً فشيئاً حتى يقوى العود، ويشد الساعد، إلى غير ذلك من أساليب تنمية الذكاء، والفطنة .

٥ - الاجتهاد والجد فى طلب العلم، وجعل ذلك الشغل الشاغل مع الحرص وعدم التفریط، قال تعالى ليحيى ﷺ : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم : ١٢] ، وقال تعالى عن بنى إسرائيل : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة : ٦٣ ، ٩٣ ، والاعراف : ١٧١] ، وقال تعالى لموسى ﷺ : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا أُخُدُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الاعراف : ١٤٥] .

٦ - ملازمة العلماء ، والتلقى عنهم لاسيما فى أوائل الطلب، والتحذير الشديد من الاعتماد على الكتب وحدها فى البداية، فإن هذا ينتهى بالطالب إلى أخطاء لا تُحمد عقباها، على أنه يشترط فيمن تجب ملازمته من العلماء أن يكون من أهل الاجتهاد والحكمة بحيث يبدأ التربية باختيار رأى واحد، حتى إذا تيقن قوة ساعد تلميذه، واشتداد عوده أطلعه على الآراء الأخرى فى غير مذهبه، وأعلمه كيف يوازن بين الأدلة فيجمع بينها، أو يرجح بعضها على بعض .

(١) الحديث أورده العراقى فى : المغنى ١/ ٥٠، وعقب عليه بقوله : « أخرجه الطبرانى والحاكم، والبيهقى فى المدخل، إلا أنهم قالوا : [هكذا فعل] ، قال الحاكم : [صحيح الإسناد على شرط مسلم] » .

يقول الغزالي في آداب المتعلم والمعلم ووظائفه : « الوظيفة الرابعة : أن يحترز الحائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة، فإن ذلك يدهش عقله، ويحير ذهنه، ويفتر رأيه، ويؤثسه عن الإدراك والاطلاع، بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريق الحميدة، الواحدة المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغى إلى المذاهب والشبه، وإن لم يكن أستاذه مستقلاً باختيار رأى واحد، وإنما عاداته نقل المذاهب، وما قيل فيها، فليحذر منه، فإن إضلاله أكثر من إرشاده، فلا يصلح الأعمى لقود العميان، وإرشادهم، ومن هذا حاله يُعد في عمى الخيرة، وتيه الجهل، ومنع المبتدئ عن الشبه يضاهي منع الحديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار، وندب القوى إلى النظر في الاختلافات يضاهي حث القوى على مخالطة الكفار، ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار، ويندب الشجاع له » (١) .

كما يشترط متانة الدين في هؤلاء العلماء الذين يلزمهم، ويتلقى عنهم، حيث يُربون بسلوكهم قبل أن يُربوا بأقوالهم .

خاتمة المطالب : ماهية الطائفة المذكورة في الحديث وخصائصها

اختلف العلماء في تحديد ماهية الطائفة المذكورة في الحديث، فذهب الإمام أحمد ابن حنبل إلى أنهم أهل الحديث، قائلاً : « إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم » ، وعلّق على ذلك القاضي عياض فقال : « إنما أراد أحمد : أهل السنة والجماعة، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث » (٢) ، وذهب الإمام البخاري إلى أنهم أهل العلم (٣) ، وكأنه استشرف ذلك مما جاء في صدر الحديث من قوله : « من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين » .

وذهب الإمام النووي إلى أن هذه الطائفة ليست محصورة في شخص بعينه، وإنما تضم كل مسلم ملتزم بالإسلام، عامل له، مضح في سبيله غير مبال بما ينزل به من محن وشدائد من مفسر، ومحدث، وفقه، وداعية، ومرب، وطبيب، ومهندس، وقاض، وكاتب، وأديب، ومفت، وباحث، وهلم جرا .

انظر : إحياء علوم الدين ١/ ٥١ .

انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/ ٦٨ .

انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/ ٦٩ .

انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٣/ ٦٨ .

فقد قال : « قلت : ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم : شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وأمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض » (١) .

واستدل بصحة ما ذهب إليه بقوله : « وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبي ﷺ إلى الآن، ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور في الحديث » (٢) .

وكلام النووي مع وجاهته وموضوعيته يعارضه من حيث المكان الذي تكون به هذه الطائفة حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً : « لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » (٣) ، إذ قال على بن المديني المراد بأهل الغرب : العرب، وقال آخرون : المراد به الغرب من الأرض، وحديث : « آخره بيت المقدس » أي أهل الشام، وما وراء ذلك، والحق أنه لا تعارض، لأن هذه الطائفة إنما تكون ابتداء في كل أنحاء الأرض، وأقواها، وآخرها يكون بيت المقدس وما وراءه من بلاد الشام، إذى هي أرض الرباط كما جاء في الحديث إلى قيام الساعة (٤) .

١ - خصائص هذه الطائفة فهي كما في الحديث .

١ - الفقه في الدين فقهاً يجمع بين الأصالة والمعاصرة، والشمول، والوسطية، ورعاية أدب الخلاف، وأصول الوحدة، ونبذ الفرقة، ونحو ذلك من كل ما يسهم في استمرار قيام الطائفة المذكورة في الحديث بواجبها إلى الوقت الذي أبرمه الله، وقضاه .

٢ - الانتماء إلى هذه الأمة المسلمة لا إلى أمة أخرى، بدليل قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي . . . » .

٣ - الاستمسك بأمر الله بالتحلى به في نفسها، ودعوة الآخرين إليه، ومجاهدة الكفار والمنافقين الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً .

٤ - الصبر على المحن والشدائد التي تعترض طريق هذه الطائفة إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

١ - انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٦٩/١٣ .

٢ - الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الإمارة : باب : قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم » ٧٠/١٣ رقم ٩١٧٧/٤٩٣٥ من حديث سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه مرفوعاً بهذا اللفظ .

انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٧٠/١٣ .

٥ - الظهور على الناس بالحق ، والغلبة به ودليل هذه الخصائص الآخرة جميعاً قوله ﷺ : « قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على الناس » .

ما يستفاد من الحديث دعويًا وتربويًا :

١ - الحرص على الفقه في الدين لكونه مأمورًا به في الكتاب والسنة والفوائد والثمرات التي مضى الحديث عنها خلال شرح الحديث .

٢ - اليقين أن خيرية الأمة الإسلامية مستمرة إلى قرب قيام الساعة كما يكشف عن ذلك قيام الطائفة المذكورة في الحديث بالتحلى بمبررات هذه الخيرية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله - عزَّ وجلَّ - بحيث يثمر هذا اليقين القضاء على اليأس والقنوط، ثم غرس الثقة والأمل في النفوس .

٣ - دعوة كل مسلم أن يؤدي واجبه بكل ما لديه من طاقات وإمكانات، وأن يتحمل مشاق الطريق ومتاعبها فيكون له شرف الانتماء للطائفة المذكورة في الحديث، وهذه الدعوة مأخوذة من الحديث تلميحًا لا تصريحًا؛ لأن التعبير بالخير في الحديث مآله الأمر، كأنه قال : كونوا ضمن هذه الطائفة القائمة بأمر الله والمستمسكة به دون مبالاة بخذلان المخذلين، ومخالفة المخالفين إلى أن يأتي أمر الله وهم على الناس ظاهرين .

٤ - زيادة اليقين بصدقه ﷺ في دعوى النبوة والرسالة، حيث أخبر بما أخبر به، وصدقه الواقع من عصره إلى اليوم رغم العقبات والمعوقات، وسيظل الأمر كذلك إن شاء الله إلى قيام الساعة، فكانت هذه أمانة من أمارات النبوة، وتظهر ثمرة زيادة هذا اليقين في مزيد من تحكيمه ﷺ في كل شؤون الحياة الجلي منها والخفي، والكبير والبسيط، مع الرضا بما قضى والتسليم ظاهراً وباطناً، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء] .

٥ - تحقيق وعد الله بحفظ دينه في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر] ، إذ أبقى في هذه الأمة مثل هذه الطائفة لحفظ دينه، وحمايته من كيد الكائدين وعبث العابثين .

الحديث الثالث والثلاثون

عن أنس بن مالك ، عن معاذ بن جبل قال : كنتُ ردفَ النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرجل ، فقال : « يا معاذ بن جبل » ، قلتُ : لبيك يا رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ، ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلتُ : لبيك يا رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ، ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلتُ : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : « هل تدري ما حق الله - عز وجل - على العباد ؟ » قال : قلتُ : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » ، ثم سار ساعة ، ثم قال : « يا معاذ بن جبل » قلتُ : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : « هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » قال : قلتُ : الله ورسوله أعلم ، قال : « ألا يعذبهم » .

تخريج الحديث :

الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد والسير : باب : اسم الفرس والحمار ، رقم ٢٨٥٦ ، وكتاب اللباس : باب : إرداف الرجل خلف الرجل رقم ٥٩٦٧ ، وكتاب الاستئذان : باب : من أجاب بلبيك وسعديك رقم ٦٢٦٧ ، وكتاب الرقاق ، باب : من جاهد نفسه فى طاعة الله رقم ٦٥٠٠ ، وكتاب التوحيد : باب : ما جاء فى دعاء النبي ﷺ : أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى رقم ٧٣٧٣ .

ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً رقم ١٤٣ - ٤٨ / ١٤٦ - ٥١ / ٣٠ ، ب ، ج ، د ، وهذا لفظه .

والترمذى فى : الجامع : كتاب الإيمان : باب : ما جاء فى افتراق الأمة رقم ٢٦٤٣ ، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن معاذ بن جبل » .

وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب : ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة رقم ٤٢٩٦ .

وأحمد في : المسند ٢٣٨/٥ كلهم من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً مع تفاوت في اللفظ .

وينبغي الانتباه إلى أن هناك حديثاً آخر رواه أنس بن مالك أيضاً عن معاذ فيما يتعلق بجزء من مات على التوحيد صدقاً من قلبه، وقد أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب العلم : باب : من خصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا رقم . ١٢٨

ومسلم في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً رقم ٣٢/٥٣/١٤٨، ولما تشابه الحديثان في أن معاذاً كان رديف النبي ﷺ في كل منهما، وأنه وقع في كل منهما منع النبي ﷺ معاذاً أن يخبر الناس لئلا يتكلموا : ظنهما بعض العلماء - كأبي نصر الحميدي الأندلسي المتوفى ٤٨٨ ، ومن تبعه - أنهما حديثٌ واحد، والحق أنهما حديثان لاختلاف موضع كل من ناحية، ولتضمن حديث جزء من مات على التوحيد جملة : « فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً » تلك التي خلا منها هذا الحديث .

من ناحية أخرى : كما بين ذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني في : فتح الباري . ٦٠ / ٦

المعنى الإجمالي للحديث :

قامت الدلائل العقلية والنقلية والفطرية على أن الله واحد حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، موصوف بكل كمال، منزّه عن كل نقص كما قامت الدلائل كذلك على أن كل نعمة دقت أو عظمت ، ظهرت أو خفيت، مردها إلى الله - عز وجل - وما أكثر هذه النعم : قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) ﴾ [طه] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ... ﴾ [النحل : ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ... ﴾ [إبراهيم : ٣٤ ، والنحل : ١٨] .

وإذا كان الأمر على ما ذكر فإن حق الله على عباده أن يخضعوا له وينقادوا ظاهراً، وباطناً، مع كمال الحب والتعظيم، ومع الاستمرار والدوام .

والحديث الذى نحن بصدد شرحه وبيانه الآن يشير إلى هذا الحق، وجزائه، وقد سلك النبي ﷺ فى بيانه مسلك السؤال المتكرر مع الصمت برهة من الزمن عند كل مرة يسأل فيها بفرض أن يجمع السامع همته، وأن يستحضر ذهنه حتى إذا كان الجواب وقع من النفس كل موقع .

إذ سأل معاذاً عن حق الله على عباده، وكان معاذ رضي الله عنه غاية فى حُسن التأدب، وكمال التفويض حين ردَّ الأمر فى ذلك كله إلى الله ورسوله، وكان جواب النبي ﷺ أن العبادة لله القائمة على التوحيد، وعدم الشرك هى حق الله على عباده الذى لا يجوز إهداره أو إهماله بحال، ثم بين النبي ﷺ أن جزاء من عبد الله فلم يشرك به شيئاً إنما هو الجنة بغير سابقة عذاب، ولكن عبرَ عن هذا الجزاء بالحق الذى أوجبه الله على نفسه، ولم يوجهه عليه أحد من خلقه من باب: الحث، والتحريض، والتشجيع .

ولتتضح معالم الحديث بصورة أكثر فإننا سنعرض له من هذه الجوانب :

الجانب الأول : معانى المفردات والجُمل والمغزى الذى ترمى إليه هذه المفردات والجُمل .

الجانب الثانى : تعريف العبادة ومفهومها ومضمونها وأقسامها، وشروط صحتها، وسرُّ التحذير من الشرك .

الجانب الثالث : مبررات أن العبادة الخالية من الشرك حق الله على عباده .

وذلك على النحو التالى :

الجانب الأول : معانى المفردات والجُمل والمغزى الذى ترمى إليه هذه المفردات والجُمل :

قوله : « كنتُ ردِّف النبي ﷺ ليس بينى وبينه إلا مؤخرة الرجل » :

« الردف » : أصل الردف، والإرداف : الركوب أو الإركاب على ردف الدابة أى : عجزها ، كما يطلق على : التابع، والتتابع، ويطلق كذلك على : التأخر والتأخير، ويطلق أيضاً على الدنوَّ والقُرب، والإدناء والتقريب ولا تعارض بين هذه المعانى جميعاً، إذ هو ركوب المرء خلف غيره على سبيل التبعية والتأخر لكن مع الدنوَّ والقُرب^(١) .

(١) انظر : عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ للشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبي ١/٢ - ٩١ - ٩٣ بتصرف كثير، والنهاية فى غريب الحديث والأثر، مادة : « رَدِفَ » ، وفتح البارى لابن حجر ١٣/٤٢٩ (١٠/٣٩٨) بتصرف .

والمراد به فى الحديث هو ركوب معاذ خلف النبى ﷺ مع دنوه منه وقربه لا يفصل بينهما إلا مؤخره، الرحل، ومأخرة الرحل هى الخشبة أو العود الذى يجعل خلف الراكب يستند إليه كى لا يؤذيه الركوب، وقصد معاذ من وراء هذه الجملة : المبالغة فى شدة وقربه، كما قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ١١ / ٣٣٩ - ليكون أوقع فى نفس سامعه أنه ضبط ما رواه .

قوله : « لبيك يا رسول الله وسعديك » :

إجابة بعد إجابة، وإسعاد بعد إسعاد، وكرر النبى ﷺ السؤال ثلاثاً مع السكوت برهة من الزمن بعد كل سؤال ليحمل معاذاً على العناية والاهتمام بما يخبره به فيجمع همته، ويستحضر ذهنه، ويفهم ما يلقي عليه جيداً، ويعيه، ويعمل به، ويبلغه غيره بما يمكن من أساليب البلاغ ووسائله التى لا تتعارض مع سبائى الشرع الحنيف (١) .

قوله : « هل تدرى ما حق الله على العباد ؟ » :

أى : ما يستحقه على عباده مما كلفهم به من حكمه، وألزمهم إياه بصورة دائمة لا انقطاع فيها ولا تردد .

قال القرطبى : « وحق الله على عباده : ما أوجبه عليهم بحكمه، وألزمهم إياه بخطابه » (٢) .

قوله : « قال : هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » :

المراد : ما وعدهم به من الثواب والجزاء، وقد جعل ربُّ العزة هذا الوعد بمثابة حق للعباد عليه تفضلاً منه وكرماً، ولا يجوز تخلفه ؛ لأن الكريم إذا وعد لا يُخلف وعده (٣) .

قوله : « ألا يعذبهم » :

يقصد أن الله يُدخلهم الجنة دون سابقة حساب ولا عذاب .

الجانب الثانى : تعريف العادة . ومفهومها ومضمونها وأقسامها، وشروط صحتها .

لغة : تطلق العباد فى اللغة على معانٍ ، نذكر منها :

(١) انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبى ١/٢٠٣ بتصرف .

٢٠٠٣ . انظر : المفهم ١/٢٠٣ .

١ - الانقياد، والخضوع، والذل مطلقاً، تقول : عَبْدَ فلانٍ فلاناً : انقاد له وخضع وذل، وعَبَدَ الطريق : ذلَّه، وقيل الانقياد والخضوع والذل لكن مع التعظيم .

٢ - الطاعة، تقول : عَبْدَهُ أطاعه (١) .

ولا تعارض بين المعنيين ، إذ الطاعة الحقَّة منشؤها التذلل والخضوع، كما أن صدق التذلل والخضوع يقود إلى كمال الطاعة .

وفرق الشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبي بين : العبودية والعبادة بقوله : « والعبودية إظهارُ التذلل، والعبادة أبلغ منها ؛ لأنها غاية التذلل ولا تليق إلا بمن له غاية الإفضال كالباري تعالى » (٢) .

شريعاً : أما العبادة في لسان الشرع فهي - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة » (٣) .

مضمون العبادة ومحتواها مع الدليل :

ومضمون العبادة ومحتواها : شعب الإيمان البضع وستون أو البضع والسبعون التي جاء بها حديث أبي هريرة مرفوعاً : « الإيمان بضع وستون شعبة، والحياة شعبة من الإيمان » (٤) ، وفي رواية : « الإيمان بضع وسبعون : أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان » (٥) .

(١) انظر : القاموس المحيط ١/٥٩٦، والصحاح في اللغة والعلوم لتدريج وأسامة المرعشيلين ، ص ٧٠٠، المعجم الوسيط ٢/٥٧٩، ٥٨٠ مادة : « عبد » بتصرف .

(٢) انظر : عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ٣/٢٧ .

(٣) انظر : العبادة في الإسلام ، للدكتور يوسف القرضاوي ، ص ٣١ ، نقلاً عن : رسالة العبودية لابن تيمية .

(٤) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : أمور الإيمان بهذا اللفظ على سبيل الجزم . ٩/١ .

(٥) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها، وأدناها ١/٦٣ رقم ٥٧ بلفظ : « الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياة شعبة من الإيمان »، ورقم ٥٨ بلفظ : « الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول : لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان »، وأبو داود في : السنن : كتاب السنة : باب : في رد الإرجاء ٥/٥٥، ٥٦ رقم ٤٦٧٦ بهذا اللفظ، ولكن بإبدال : « الأذى » بـ « العظم » ، والترمذي في : السنن : كتاب الإيمان : باب : الإيمان : باب : ما جاء في استكمال الإيمان، وزيادته ونقصه ٥/١٢ رقم ٢٦١٤ بلفظ : « الإيمان بضع وسبعون باباً، أدناها إمطة الأذى عن الطريق ، وأرفعها قول : لا إله إلا الله » ، وعقب عليه بقوله : [هذا حديث حسن صحيح، وهكذا روى سهيل بن أبي صالح، عن عبد الله بن دينار، =

وقد ساق ابن تيمية تصوراً لها ، فقال : « فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج عبادة ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود عبادة ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين عبادة ، والإحسان للجار ، واليتيم ، والمسكين ، وابن السبيل ، والخدم ، والرحمة بالضعيف ، والرفق بالحيوان عبادة ، وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله ، والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء في رحمته ، والخوف في عذابه ، وأمثال ذلك كله عبادة ، بل الدين كل داخل في معنى العبادة ، وخير دليل على صحة هذا المضمون ، وذلك المحتوى كتاب الله - عز وجل - وسنة النبي ﷺ ، إذ كتاب الله ناطق أن العبادة هي الحياة كلها ، وحسبنا آية البر : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة] .

وحسبنا كذلك قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُورًا ﴾ (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا يَاہُ وَيَالِوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا... ﴿ إلى قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا... ﴾ ، إلى قوله سبحانه : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٧٤) [الفرقان] . . . إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنعته الخير ، والرامي به ، ومُنْبَلِه ، وارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا ، وليس من اللهو إلا في ثلاثة : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته امرأته ، ورميه

= عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، وروى عمارة بن غزيرة هذا الحديث ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « الإيمان : أربعة وستون باباً » ، قال : حدثنا بذلك قتيبة ، عن بكر بن مضر ، عن عمارة بن غزيرة به [، والنسائي في : السنن : كتاب الإيمان : باب : ذكر شعب الإيمان ٨ / ١١٠ كرواية مسلم الأولى ، وكرواية أبي داود [المجتبى] ٦ / ٥٣٢ رقم ١١٧٣٥ ، ١١٧٣٦ [السنن الكبرى] ، وابن ماجه في : السنن : المقدمة : باب : في الإيمان ١ / ٢٢ رقم ٥٧ كرواية مسلم الثانية ، كلهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً .

بقوسه، ونبله، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة كفرها، أو قال : كفر بها « (١) .

وقوله ﷺ : « ما من مسلم يغرّس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير ، أو إنسان ، أو بهيمة ، إلا كان به صدقة » (٢) ، وفي رواية ثانية : « ما من مسلم يغرّس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سُرِق منه له صدقة ، ولا يزرؤه أحد إلا كان له صدقة » (٣) .

١. الحديث أخرجه أبو داود في : السنن : كتاب الجهاد : باب : في الرمي ٢٨/٣ ، ٢٩ رقم ٢٥١٣ ، والترمذي في : السنن : كتاب فضائل الجهاد : باب : ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله ١٤٩/٣ رقم ١٦٣٧ ، وعقب عليه بقوله : « وفي الباب : عن كعب بن عجرة ، وعمرو بن عتبة ، وعبد الله بن عمرو ، وهذا حديث حسن صحيح » ، والنسائي في : السنن : كتاب الخيل : باب : تأديب الرجل فرسه ٢٢٢/٦ ، ٢٢٣ [المجتبى] ، ٣٩/٣ ، ٤٠ رقم ٤٤٢٠ [الكبرى] ، وابن ماجه في : السنن : كتاب الجهاد : باب : الرمي في سبيل الله ٩٤٠/٢ رقم ٢٨١١ ، وأحمد في : المسند ١٤٦/٤ ، والحاكم في المستدرک : كتاب الجهاد : باب : من علم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها ٩٥/٢ كلهم من حديث عقبه بن عامر مرفوعاً به ، وبنحوه ، وعقب الحاكم بقوله : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، وأقره الذهبي على ذلك في : التلخيص ، وساق الحاكم له شاهداً من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « كل شيء من لهو الدنيا باطل إلا ثلاثة : انتضالك بقوسك ، وتأديبك فرسك ، وملاعبتك أهلك ، فإنها من الحق » ، وقال : انتضلوا ، واركبوا ، وأن تنتضلوا أحب إلى ، إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة : صانعه يحتسب فيه الخير ، والنتيل ، والرامي به » ، وقال : صحيح على شرط مسلم » ، ولم يوافق الذهبي على ذلك ، إذ قال في : التلخيص : « قلت : كذا قال ، وسويد - يقصد ابن عبد العزيز ، أحد رجال الإسناد - متروك » .

٢. الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب المزارعة : باب : فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ١٣٥/٣ عن قتيبة ، وعبد الرحمن بن المبارك ، وكتاب الأدب : باب : رحمة الناس والبهائم ١٢/٨ عن أبي الوليد ، ومسلم في : الصحيح : كتاب البيوع : باب : فضل الغرس والزرع ١٨٩/٣ رقم ١٥٥٣/١٢ ، وعن يحيى بن يحيى ، وقتيبة ، ومحمد بن عبيد بن حساب ، والترمذي في : السنن : كتاب الأحكام : باب : ما جاء في فضل الغرس ٦٦٦/٣ رقم ١٣٨٢ عن قتيبة ، وأحمد في : المسند ١٤٧/٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ عن يونس ، ٢٤٣ عن عفان ، سبعتهم : أعنى : [قتيبة ، وعبد الرحمن بن المبارك ، وأبا الوليد ، ويحيى بن يحيى ، ومحمد بن عبيد الله بن حساب ، ويونس ، وعفان] ، عن أبي عوانة الوضاح الشكري ، عن قتادة ، عن أنس مرفوعاً ، واللفظ لمسلم ، وعقب الترمذي على حديثه بقوله : « حديث أنس حديث حسن صحيح » .

ومسلم في : الصحيح : كتاب المزارعة (المساقاة) : باب : فضل الغرس والزرع ١١٨٩/٣ رقم ١٥٥٣/١٣ ، وعن عبد بن حميد ، عن مسلم بن إبراهيم ، عن أبان بن يزيد ، والبخاري في : الصحيح : كتاب المزارعة : باب : فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ١٣٥/٣ قاتلاً : وقال لنا مسلم : حدثنا أبان ، حدثنا قتادة ، حدثنا أنس مرفوعاً ، ولفظ مسلم : « أن نبى الله ﷺ دخل نخلاً لأم مبشر - امرأة من الأنصار - فقال رسول الله ﷺ : « من غرس هذا النخل ؟ أم مسلم أم كافر ؟ » ، قالوا : مسلم ، بنحو حديثهم ، وأحمد في : المسند ١٩٢/٣ عن بهز وعفان قالا : حدثنا أبان ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ دخل نخلاً لأم مبشر - امرأة من الأنصار ... الحديث .

٣. الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب المساقاة : باب : فضل الغرس والزرع ١٨٨/٣ رقم ١٥٥٢/١١٠٧ من عدة طرق إلى جابر بن عبد الله مرفوعاً بهذا اللفظ ، وبنحوه ، والدارمي في : السنن : كتاب =

وقوله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء» (١)،
وقوله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» (٢).

وحسبنا أيضاً أن حياته ﷺ في سلمه، وحره، في حله وترحاله، في خاصة نفسه، ومع أهله وذويه، في نومه ويقظته، في كلامه وصمته، في أكله وشربه، مع الخالق والمخلوق، في كل أحواله كانت لله - عز وجل - فكانت عبادة تطبيقاً لقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام].

وحسبنا كذلك تطبيقات المسلمين من لدن عصره ﷺ إلى أن طرأ الضعف والانحطاط على حياتهم في عصرنا هذا، إذ كان منهم الخليفة والأمير والوالي، والعامل، والقاضي، والمعلم، والمتعلم، والزارع، والصانع، والتاجر، والشرطي، والمجاهد، ونحو ذلك من الحرف والمهارات، بل إن الأمر اللافت للنظر هو أن العلماء في الجملة كانوا يحترفون مع الاشتغال بالعلم استغناءً عما في أيدي السلاطين، وغيرهم من الناس فيظلون أحراراً في الجهر بالحق، وإنكار المنكر بضوابطه الشرعية من غير أن تأخذهم في الله لومة لائم، ولم يكن الاشتغال بهذه الحرف في فقهم خارجاً عن مضمون العبادة ومحتواها.

= البيوع: باب: فضل الغرس ٢ / ٢٦٨، ٢٦٩ من حديث جابر بن عبد الله، عن أم مبشر، عن النبي ﷺ، وأحمد في: المسند ٦ / ٤٢٠ من حديث جابر، عن أم مبشر مرفوعاً به.

(١) الحديث أخرجه الترمذى في: السنن: كتاب البيوع: باب: ما جاء في التجار وتسمية النبي ﷺ إياهم ٣ / ٥١٥ رقم ١٢٠٩، والدارمي في: السنن: كتاب البيوع: باب: في التاجر الصدوق ٢ / ٢٤٧ من حديث أبي سعيد مرفوعاً بهذا اللفظ.

(٢) الحديث أخرجه الترمذى في: السنن: كتاب المناقب: باب: فضل أزواج النبي ﷺ ٥ / ٦٦٦، ٦٦٧ رقم ٣٨٩٥ من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضيها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، وإذا مات صاحبكم فدعوه»، وعقب عليه بقوله: «هذا حديث حسن غريب صحيح من حديث الثوري، ما أقل من رواه عن الثوري، وروى هذا عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن النبي ﷺ: مرسل».

وابن ماجه في: السنن: كتاب النكاح: باب: حُسن معاشرَةِ النساء ١ / ٦٣٦ رقم ١٩٧٧ من حديث عمارة بن ثوبان، عن عطاء، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»، وعقب عليه البوصيري في: مصباح الزجاجة ٢ / ١١٧، ١١٨ بقوله: «الحديث من رواية عائشة رضيها رواه الترمذى في جامعه، وابن حبان في صحيحه، وأما رواية ابن عباس فإسناد ضعيف؛ لأن عمارة بن ثوبان ذكره ابن حبان في: الثقات، وقال عبد الحق: ليس بالقوى، وقال ابن القطان: مجهول الحال»، ورقم ١٩٧٨ من حديث عبد الله بن عمرو رضيها مرفوعاً: «خيركم خيركم لنسائهم»، وعقب عليه البوصيري في: المصباح ٢ / ١١٨ بقوله: «إسناده على شرط الشيخين».

والحديث رواه الترمذى من حديث أبي هريرة، وقال: «حسن»، والدارمي في: السنن: كتاب النكاح: باب: في حسن معاشرَةِ النساء ٢ / ١٥٩، بإسناد الترمذى، ولفظه:

فأبو حنيفة : النعمان بن ثابت ت ١٥٠هـ صاحب أول المذاهب الأربعة المشهورة المتبوعة كان بزازاً ، ومسلم بن الحجاج صاحب أصح الكتب بعد كتاب الله ، وبعد صحيح البخارى ت ٢٦١هـ كان بزازاً ، وغيرهما وغيرهما .

أقسام العبادة وشروط صحة كل منها :

تنقسم العبادة إلى قسمين :

الأول : عبادة مقيدة أو مخصوصة وهى التى حدد الشارع جوهرها وشكلها من العقيدة، والشعائر التعبدية : صلاةً ، وزكاةً ، وصياماً ، وحجاً وعمرةً ، ونحوها ، وهذه لا تقبل إلا بشرطين :

١ - اتباع السنّة بحيث لا يكون فيها تغيير بزيادة أو نقص أو تحريف .

٢ - الإخلاص بحيث لا يبقى فيها حظ لغير الحق تبارك وتعالى .

قال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ [الكهف] .

وقال النبى ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (١) ، وقال النبى ﷺ : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » (٢) .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : باب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/١ ، وكتاب العنق : باب : الخطأ والنسيان فى العتاقة والطلاق ونحوه ٣/١٩١ ، وكتاب مناقب الأنصار : باب : هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٥/٧٢ ، وكتاب النكاح : باب : من هاجر أو عمل خيراً لتزويج امرأة فله ما نوى ٧/٤ ، وكتاب الطلاق : باب : الطلاق فى الإغلاق والكره [الترجمة] ٧/٥٨ ، وكتاب الإيمان : باب : النية فى الإيمان ٨/١٧٥ ، وكتاب الإكراه [الترجمة] ٩/٢٥ ، وكتاب الحيل : باب : فى ترك الحيل ٩/٢٩ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب : قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنية » ٢/١٥٧ ، ١٥٨ ، وأبو داود فى : السنن : كتاب الطلاق : باب : فيما عنى به الطلاق والديات ٢/٥١٠ ، والترمذى فى : السنن : كتاب فضائل الجهاد : باب : ما جاء فىمن يقاتل رياءً وللدنيا ٤/١٧٩ ، ١٨٠ ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، والنسائى فى : السنن : كتاب الطهارة : باب : النية فى الوضوء ١/٥١ ، وكتاب الطلاق : باب : الكلام إذا قصد به النية فى اليمين ٧/١٢ ، ١٣ ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب : النية ٢/١٤١٣ رقم ٤٢٢٧ ، وأحمد فى : المسند ١/٢٥ ، ٤٣ كلهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً ، واللفظ للبخارى .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصلح : باب : إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح =

الآخر: عبادة مطلقة أو عامة، وهي التي لا تسود الأمة، ولا تقوى شوكتها إلا بها من الاشتغال بالعلوم التجريبية، والحرف، والصناعات، ونحوها، وهذه لم يتدخل الشرع فيها إلا بوضع شروط لها وضوابط، وأهم هذه الشروط وتلك الضوابط:

١ - ألا تتعارض مع كتاب الله وسنة رسوله نصاً أو استنباطاً .

٢ - أن يكون فيها نفع أو مصلحة للفرد والجماعة .

٣ - أن يراد بها وجه الله ومرضاته .

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ﴾ [الأنفال] ،
وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ... ﴾ [المائدة : ٤٨] ، وقال تعالى: ﴿ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) ﴾ [الحج] ، وقال تعالى: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بِصِدْقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) ﴾ [النساء] .

سر التحذير من الشرك مع أن العبادة الحققة تقتضى التحرر منه :

وسر التحذير من الشرك مع أن العبادة الحققة تقتضى التحرر منه: أن نفرأ من الناس يقعون في الشرك، وهم يعبدون الله تشبهاً ببعض الكفرة، الذين كانوا يدعون أنهم يعبدون الله، ولكنهم كانوا يعبدون معه آلهة أخرى، فاشتراط النبي ﷺ نفى ذلك^(١)، كان تقدير الكلام: أن حق الله على عباده أن يعبدوه حال عدم الإشراك به على حد قوله سبحانه: ﴿ يَعْبدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ... ﴾ [النور : ٥٥] .

وإنما اشترط النبي ﷺ نفى الشرك؛ لأن وجوده يحبط العمل، ويوجب الخلود في النار: قال تعالى: ﴿ وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٢) ﴾ [الفرقان] ،

= مردود ٢٤١/٣، ومسلم في: الصحيح: كتاب الأفضية: باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ١٣٤٤، ١٣٤٣/٣، رقم ١٧١٨/١٧، ١٨، وأبو داود في: السنن: كتاب السنة: باب: في لزوم السنة ١٢/٥ رقم ٤٦٠٦، وابن ماجه في: السنن: المقدمة: باب: تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتقليط على من عارضه ٧/١ رقم ١٤، وأحمد في: المسند ٢٧٠/٦ كلهم من حديث عائشة مرفوعاً به، وزاد مسلم في روايته الثانية: أن سعد بن إبراهيم قال: سألت القاسم بن محمد عن رجل له ثلاثة مساكن، فأوصى بثلث كل مسكن منها، قال: يجمع ذلك كله في مسكن واحد، ثم قال: أخبرتنى عائشة أن رسول الله ﷺ قال: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

(١) انظر: فتح الباري ٥٢١/١٤ ط دار أبي حيان ٣٣٩/١١ ط السلفية .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ... ﴾ [المائدة : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٨٨) [الانعام] ، وقال تعالى : ﴿ لَنْ أَشْرَكَتَ لِحَبِطِنَّ عَمَلِكُ وَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٦٥) [الزمر] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (٧٢) [المائدة] .

ويقول النبي ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله - عز وجل - فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » (١) ، إلى غير ذلك من الدلائل .

الجانب الثالث : مبررات أن العبادة الخالية من الشرك حق الله على عباده :

ومبررات أن العبادة الخالية من الشرك حق الله على عباده كثيرة، منها :

١ - وحدانية الله ، وكمالاته التامة، وجلاله المطلق مع التنزه عن كل نقص، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (٨) [طه] ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٤) [الحشر] .

وفجوى هذا المبرر : اطمئنان الناس أن ربهم معهم يرعاهم على قدم المساواة، ولا يتخلى عنهم أبداً لاسيما إذا عبدوه حق عبادته .

٢ - نعم الله التي لا تعد ولا تحصى ما ظهر منها وما بطن ، ما علمنا منها ، وما لم نعلم مع استمرار هذه النعم وإن عصى الناس .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٤ ، النحل : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب تفسير القرآن : باب : ومن سورة الكهف ٣١٤/٥ رقم ٣١٥٤ ، وقال عقيبه : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن بكر » ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب : الرياء والسمة ١٤٠٦/٢ رقم ٤٢٠٣ ، وأحمد فى : المستدرك ٤٦٦/٣ ، ٢١٥/٤ كلهم من حديث أبى سعيد بن أبى فضالة ، وكان من الصحابة مرفوعاً ، واللفظ لابن ماجه .

فَرَأَسًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ [البقرة] ، وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ ﴾ [النحل] .

٣ - أمر الله ورسوله بذلك :

قال تعالى : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج] ، وقال تعالى : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت] .

وقال عليه السلام لوفد عبد القيس : « أمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : اعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئاً . . . » الحديث (١) .

والمسلم الحق لا يسعه أمام أمر الله ورسوله إلا الامتثال . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٥١] .

الجانب الرابع : الجزاء الذى يتفضل به رب العزة على من قام بأداء حق الله عليه من العبادة الخالية من الشرك :

الجزاء الذى يتفضل به رب العزة على من قام بأداء حق الله عليه من العبادة الخالية من الشرك هو السلامة من العذاب كما فى الحديث : « ألا يُعذبهم » ، وهذا أدناه ، أما أعلاه فهو الحياة الطيبة فى الدنيا، والجنة والرضوان فى الآخرة، قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت] .

مع الاطمئنان إلى تحقيق هذا الجزاء إذا تحقق شرطه، إذن فالله هو الذى أوجب

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصلاة : باب : قول الله تعالى : ﴿ مَنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم] ص ٨٩ ، رقم ٥٢٣ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال : قدم وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا من هذا الحى من ربعة ولنا نصل إليك إلا فى الشهر الحرام، فمرنا بشيء نأخذه عنك، وتدعو إليه من وراءنا، فقال : «أمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله وحده - ثم فرسها لهم - شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا إلى خمس ما غنمتم، وأنهى عن الدباء، والحتم، والمقبر، والمقبر .»

ذلك على نفسه، وألزمها به عندما سمى ذلك حقاً، مع أنه لا موجب لأحد على الله، ولا ملزم له بشيء أبداً فكان ذلك منه سبحانه تظميماً وتشجيعاً للمضى فى العبادة مع التخلص من الشرك بكل صورته وأشكاله، ولا عبرة بما ذهب إليه المعتزلة فى أن الوجوب على الله إنما هو عقلى، لا شرعى؛ لأن الله - كما يقول القرطبي: « لا يجب عليه شيء بحكم الأمر، إذ لا أمر فوقه، ولا بحكم العقل، إذ العقل كاشف لا موجب » (١).

ما يُستفاد من الحديث دعويّاً وتربويّاً :

يُستفاد من الحديث دعويّاً وتربويّاً عدة فوائد ، نذكر منها :

١ - أن عبادة الله التى رأسها التوحيد الخالى من كل شائبة شرك : حق ثابت لله على عباده، لا يصح إهماله، أو التفريط فيه بحال، ويعين على الالتزام بهذا الحق :

أ - تذكر كمال الله، وجلاله، إذ ذلك يقتضى الحب، والتعظيم، والتوحيد، والتخلص من الشرك ظاهره وباطنه، كبيره وصغيره، ما علمنا منه وما لم نعلم .

ب - استحضار أن الله أمر بهذه العبادة فى قوله : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [العنكبوت]، كما أمر بها الرسول ﷺ على النحو الذى ذكر آنفاً، والمسلم الصادق لا يسعه أمام أمر الله ورسوله سوى الخضوع والتسليم والانقياد .

ج - الوقوف مع النعم جملة وآحاداً، وكف يفيض بها الحق تبارك وتعالى على عباده وإن عصوه وخالفوه، فإن ذلك يحمل على الاستحياء، ثم المسارعة إلى إتيان ما يحبه الله ويرضاه، والبعد عن كل ما يبغضه الله ولا يرضاه، وهل العبودية سوى ذلك؟

٢ - أن جزاء عبادة الله الحقّة : الحياة الطيبة فى الدنيا، والنجاة من النار والفوز بالجنة غداً، فضلاً من الله ونعمة، لقوله سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل] .

٣ - أهمية التهيئة الحافظة فى جمع الهمة، وحضور الذهن، والقلب، الأمر الذى يساعد على الاستيعاب، والتحليل، والاستنباط، وقد تجلّت هذه التهيئة فى نداءه ﷺ معاًداً عدة مرات دون مفاتحته فى شيء، حتى إذا صار مهياً كان السؤال، وكان معه الجواب .

(١) انظر : المفهم للقرطبي .

٤ - فضل السؤال في تحصيل العلوم والمعارف، إذ المرء إذا سئل جمع همته لينطق بالجواب، فإن عجز أصغى ليسمع الجواب، ثم يعمل جاهداً على الاحتفاظ به، وأن يظل ذاكراً له فلا ينساه .

٥ - رحمة الله بعباده، وفضله عليهم بعظيم المثوبة، وجميل المكافأة إن هم عبده، فلم يشركوا به شيئاً، بل تشجيعهم حين جعل ذلك حقا لهم، وأوجه على نفسه، والكريم إذا تفضل بوعده ما أنفذه على وجهه الذي به تنشرح الصدور، وتقرُّ الأعين، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) ﴾ [لقمان] .

الحديث الرابع والثلاثون

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

تخريج الحديث :

الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد والسير : باب : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ٦/٣٤ - ٣٦ رقم ٢٨١٠ [فتح البارى] ، وكتاب العلم : باب : من سأل وهو قائم عالماً جالساً ١ / ٢٩٦ رقم ١٢٣ ، بلفظ : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما القتال في سبيل الله ، فإن أحدنا يقاتل غضباً ، ويقاتل حميةً ؟ فرفع إليه رأسه ، قال : وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً - فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عزَّ وجلَّ » .

وكتاب فرض الخمس : باب : من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره ، ص ٥١٧ رقم ٣١٢٦ بلفظ : قال أعرابى للنبي ﷺ : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليُذكر ، ويقاتل ليُرى مكانه ، من في سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

وكتاب التوحيد : باب : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) ﴾ [الصفات] ص ١٢٨٥ رقم ٧٤٥٨ بلفظ : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء ، فأى ذلك في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، ص ٨٥٢ رقم ٤٩١٩/١٩٠٤/١٤٩ بلفظ البخارى فى : فرض الخمس ، ورقم ٤٩٢٠/١٩٠٤/١٥٠ بلفظ البخارى فى : التوحيد غير أنه قدم : الشجاعة على الحمية ، ورقم ٤٩٢٢/١٩٠٤/١٥١ بلفظ البخارى فى : العلم .

وأبو داود فى: السنن: كتاب الجهاد : باب: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، ص ٣٦٥، رقم ٢٥١٧، بلفظ: أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن الرجل يقاتل للذكر، ويقاتل ليحمد، ويقاتل ليغنم، ويقاتل ليرى مكانه، فقال رسول الله ﷺ: « من قاتل حتى تكون كلمة الله هى أعلى، فهو فى سبيل الله - عز وجلّ » .

والترمذى فى: السنن: كتاب فضائل الجهاد : باب: ما جاء فىمن يقاتل رياء، وللنديا، ص ٣٩٤ رقم ١٦٤٦ بلفظ مسلم رقم ١٥١، وعقب بقوله: « وفى الباب: عن عمر، وهذا حديث حسن صحيح » .

والنسائى فى: السنن: كتاب الجهاد : باب: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، ص ٤٣١، رقم ٣١٣٨ بلفظ أبى داود، غير أنه لم يذكر: « ويقاتل ليحمد » .

وابن ماجه فى: السنن: كتاب الجهاد : باب: النية فى القتال، ص ٤٠٢، رقم ٢٧٨٣ بلفظ مسلم رقم ١٥٠، وكلهم من حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه.

معانى المفردات:

« للمغنم »: يعنى: يقصد الغنيمة والربح المادى .

« يقاتل للذكر »: « يعنى: ليُذكر بين الناس، ويُشار إليه بالبنان، ويشتهر بالشجاعة كما دل على ذلك ما ذُكر فى كتاب التوحيد: « ويقاتل شجاعة » .

« يقاتل ليرى مكانه »: يعنى: للرياء، كما دلّ على ذلك ما ذكر فى كتاب: فرض الخمس .

« ويقاتل رياء »: وفرق هذه الخصلة من سابقتها، أن سابقتها يقصد صاحبها بها (السمعة)، وهذه يقصد بها صاحبها أن يراه الناس يعنى: « الرياء » .

« ويقاتل حمية »: يعنى: عصبية لأهل، أو عشيرة، أو صاحب، أو أرض، أو وطن .

« يقاتل غضباً »: يعنى لأجل حظ نفسه (١)، وهناك تفسير آخر لابن حجر، إذ قال: « ويحتمل أن يفسر القتال للحمية بدفع المضرة، والقتال غضباً بجلب المنفعة » (٢).

(١) انظر فى كل معانى المفردات: فتح البارى ٦/٣٥، ٣٦ رقم ٢٨١ بتصرف، والكواكب الدرارى للكرمانى ١١٢/٦، ١١٣.

(٢) انظر: فتح البارى ٦/٣٦ .

يُعدَّ الجهاد في سبيل الله الحصن الحامى لدين الله من أن يتناول عليه المتناولون، أو يعبت به العابثون، وقد وعد الله المجاهدين الأجر العظيم فى الدنيا والآخرة شريطة أن يكون جهادهم خالصاً لله عزَّ وجلَّ ، حمايةً لدينه، وإعلاءً لكلمته، وطمعاً فى مثوبته، فقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٢٠) يَبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ [التوبة] .

وبين النبي ﷺ فى هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه الآن ، أن مقاصد الدنيا من طلب المغنم، وإظهار الشجاعة، والرياء، والحمية، والغضب، قد تكون داخلية فى الشرط المذكور آنفاً إذا ما أريد من المغنم أن يكسب المجاهد رزقاً حلالاً لنفسه ولأهله فيستغنى به عن السؤال، بل يحمله على مواصلة الجهاد ومتابعته، وإذا ما أريد من إظهار الشجاعة إرهاب العدو وتخويله، أو حمل الآخرين أن يكون شجعان مثله لإعلاء كلمة الله، وإذا ما أريد بالرياء اقتداء الآخرين من القاعدين، وحملهم على النهوض لأداء دورهم وواجبهم، أو نشاط الكسالى والفاترين منهم فى مواصلة الجهاد، وعدم الانقطاع، وإذا ما أريد بالحمية الدفاع عن الدماء، والأعراض، والأموال والأوطان والمقدسات لتبقى راية دين الله مرفوعة، خفاقة فى العالمين، وإذا ما أريد من الغضب الحفاظ على حياته، وعدم استعجال القتل أو الموت ؛ لأن المقام يقتضى مقارعة الظالمين وعدم التهاون معهم أو مهادنتهم فيبقى الحكم لله وحده، وقد تكون هذه جميعاً منافية لذلك الشرط إذا ما أريد من طلب المغنم التفاخر والمباهاة والتكاثر فحسب، على حد قول صاحب الجنتين لصاحبه : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (٢٤) [الكهف] .

وإذا ما أريد من الشجاعة إظهار العضلات، والتباهى بالقوة، وإذا ما أريد من الرياء الثناء الحسن، والذكر الجميل من الناس، وطلب المثوبة أو المكافأة منهم، وإذا ما أريد من الحمية : العصبية الجوفاء التى تحمى ما يكون به التفاخر والتعاضم من الأهل والعشيرة، والأصحاب، والدار، والوطن، وإذا ما أريد من الغضب تخويل الآخرين، وإرهابهم ليبقى ربيعاً، عظيماً فى أعين الآخرين .

وقد جاء ذلك البيان منه ﷺ بكلمات موجزة، ولكنها من جوامع كلمه ﷺ إذ لما سأله سائل عن يقاتل لبعض هذه الخصال أو لها جميعاً ، من يكون منها فى سبيل

الله؟ أجابه ﷺ بقوله : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ، وكأنه قال : فصلُ ذلك النيةُ ، فإن كانت نية الله فهي جميعاً في سبيل الله ، وإن كانت نية غير الله فهي جميعاً في سبيل غير سبيل الله .

وحتى تتضح معالم الحديث بصورة أجلى فإننا سنعرض لهذه الجوانب :

الجانب الأول : حكم القتال للمغرم ، وأدلة هذا الحكم .

الجانب الثاني : حكم القتال لإظهار الشجاعة ، وأدلة هذا الحكم .

الجانب الثالث : حكم القتال للرياء ، وأدلة هذا الحكم .

الجانب الرابع : حكم القتال للحمية ، وأدلة هذا الحكم .

الجانب الخامس : حكم القتال للغضب ، وأدلة هذا الحكم .

وذلك على النحو التالي :

الجانب الأول : حكم القتال للمغرم ، وأدلة هذا الحكم :

اختلف العلماء في حكم القتال للمغرم ، فذهب القرطبي - صاحب المفهم - إلى أنه إذا كان الباعث على القتال هو طلب المغرم وحده ، بحيث لو لم يتحقق هذا الباعث لقعده عن الجهاد ، ولم يشارك فيه بصورة مآ من الصور فإنه يكون مردوداً وقد حبط عمله ، مستدلاً بحديث الباب : ، حيث لم يذكر النبي ﷺ المغرم وغيره مما تضمنه السؤال بمجموع روايات الحديث ضمن ما يكون به القتال في سبيل الله ^(١) ، ويشهد له صنيع المنافقين في العهد النبوي ، وتخلفهم في تبوك لكونها لم تكن مظنة المغرم .

وذهب ابن بطال ، وتبعه ابن حجر العسقلاني إلى التفريق بين أن يكون مراده بطلب المغرم لكسب الحلال ليستغنى به هو وأهله وذووه ، وليتقوى به على مواصلة الجهاد لإعلاء كلمة الله ، وبين أن يكون مراده هو التكاثر والمباهاة والتفاخر على حد قول صاحب الجنتين لصاحبه : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفْراً ﴾ (٣٤) ﴿ [الكهف] ، فالأول مقبول ، لأن مآله أن صار في سبيل الله ^(٢) ، على أن الله - عز وجل - قال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ... ﴾ [البقرة : ١٩٨] ، حين تخرج نفرٌ من

(١) انظر : المفهم للقرطبي ٣/٧٤٢ ، ٧٤٣ بتصرف .

(٢) انظر : شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢٥ ، ٢٦ بتصرف ، وعنه نقل ابن حجر في : فتح الباري

المسلمين أن يضم إلى الحج التجارة، فنزلت لبيان الجواز ما دام الهدف الأسمى الحج وغيره جاء تبعاً، ومثل الحج : الجهاد، وسائر الأعمال .

وجاء عن النبي ﷺ قوله : « إن من خير معاش الناس رجلاً ممسكاً فرسه في سبيل الله »^(١) ، فجعل الجهاد - كما يقول صاحب المفهم : مما يصح أن يتخذ للمعاش، كما جاء عنه ﷺ قوله : « وجُعِلَ رزقي تحت ظل رمحي ... الحديث »^(٢) ، وما زال المسلمون من العصر النبوي إلى اليوم يجاهدون ويفزون، ويصيون المال، وبه يستغنون، ويواصلون الجهاد والغزو، ولم يقل أحد إن عملهم هذا باطل أو شرك .

وأما الثاني فغير مقبول ؛ لأنه قصد به عرضاً من الدنيا مكاثرة ومباهاة ومفاخرة، كما دل على ذلك ظاهر حديث الباب، حيث لم يجعل طلب المغنم داخلاً في سبيل الله^(٣)، وحديث الذي خرج للجهاد وهو يريد عرض الدنيا، فقال النبي ﷺ : « لا أجر له »^(٤)، ولا تعارض بين قول القرطبي، وقول ابن بطلال ومن معه، لأن القرطبي أجمل، وابن بطلال ومن معه فصلوا، وجعلوا المدار على النية، وهذا هو الحق الذي يشهد له قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى ... » الحديث^(٥) .

وقوله ﷺ : « مَنْ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَمْ يَنْوِ إِلَّا عَقَالًا فَلَهُ مَا نَوَى »^(٦) .

بيد أنه إذا تجرد المرء عن طلب المغنم فلا شك أن منزلته أرفع، ومكانته أعلى على النحو ما وقع من هذا الصحابي الجليل الذي جاء النبي ﷺ فآمن به واتبعه، فقال :

(١) الحديث جزء من حديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الإمارة : باب : فضل الجهاد والرياط، ص ٨٤٦ رقم ٤٨٨٩/١٨٨٩/١٢٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، ولفظه : « من خير معاش الناس لهم : رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على منته كلما سمع هبة (صوت حضور العدو) ، أو فزعة (النهوض إلى العدو) طار عليه، يتغى القتل والموت مظان، أو رجل في غنيمة في رأس شعبة (أعلى الجبل) من هذه الشعف، و بطن وادٍ من هذه الأودية، بقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير » .

(٢) انظر : المفهم للقرطبي ٧٤٣/٣ .

(٣) الحديث سبق تخريجه في : المجلد الأول، ص ٣٧٨ .

(٤) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرک : كتاب الجهاد : باب : لا أجر لمجاهد يتغى متاع الدنيا ٨٥/٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، رجل يريد الجهاد في سبيل الله، وهو يتغى عرضاً من عروض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ : « لا أجر له »، فسأله الثانية، والثالثة، فقال رسول الله ﷺ : « لا أجر له » ، ثم عقب عليه بقوله : « وهو حديث حسن الإسناد، ولم يخرجاه » ، وأقره الذهبي في التلخيص .

(٥) الحديث سبق تخريجه في المجلد الأول ، ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .

(٦) الحديث سبق تخريجه في المجلد الأول ، ص ٣١٥ .

أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول اللم ﷺ فقسمه، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : قسم قسمه لك رسول اللم ﷺ ، فقال : ما على هذا اتبعتك، ولكنى اتبعتك على أن أرمى ههنا - وأشار إلى حلقه - بسهم، فأموت، فأدخل الجنة، فقال : « إن تصدق الله يصدقك »، ثم نهضوا إلى قتال العدو، فأثنى به رسول اللم ﷺ يحمل، وقد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ : « هو، هو ؟ » قالوا : نعم، قال : « صدق الله فصدقه »، وكفنه النبي ﷺ في جبة النبي ﷺ ثم قدمه، فصلى عليه، وكان مما ظهر من صلته : « اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً فى سبيلك، قتل شهيداً، وأنا عليه شهيد » (١) .

الجانب الثانى : حكم القتال لإظهار الشجاعة، وأدلة هذا الحكم :

ذهب بعض العلماء إلى أنه إن قاتل للأجر والذكر أو لإظهار الشجاعة ، فجهاده مردود، وقد حبط عمله مستدلين بحديث الذى جاء إلى النبي ﷺ يقول : رأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر، والذكر، ما له ؟ فقال رسول اللم ﷺ : « لا شىء له »، فأعادها ثلاث مرات، يقول رسول اللم ﷺ : « لا شىء له »، ثم قال : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وابتغى به وجهه » (٢) .

فكيف بمن كان همه الذكر أى : الصيت أو إظهار الشجاعة فقط، إن بطلان جهاد هذا، وحبوط عمله أولى، وأظهر .

وفرق ابن بطل و ابن حجر بين أن يكون القصد من الذكر أو إظهار الشجاعة : إرهاب العدو، وتخويفه، أو حمل الآخرين، أن يكونوا شجعان مثله بحيث يستمر الجهاد، وتعلو راية التوحيد، وكلمة الله، وبين أن يكون القصد : إظهار العضلات، والتباهى بالقوة، أما الأول فمقبول ؛ لأنه آل فى الحقيقة إلى إعلاء كلمة الله التى أخبر النبي ﷺ فى حديث الباب : أن القتال من أجلها هو الذى يكون فى سبيل الله (٣) .

ويمكن تقوية ذلك بما جاء عن النبي ﷺ من قوله لأبى دجاجة يوم أحد وقد أعلم

(١) الحديث سبأى تخريجه فى : شرح الحديث : الثامن والثلاثين .

(٢) الحديث سبق تخريجه فى : المجلد الأول ، ص ٣٢١ .

(٣) انظر : شرح صحيح البخارى لابن بطل ٥/٢٥ ، ٢٦ ، وفتح البارى ٦/٣٥ بتصرف .

بعصاة حمراء، فنظر إليه وهو مختال في مشيته بين الصفيين فقال : « إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع » (١) .

ومن قوله للمسلمين يوم عمرة القضاء، وقد قال المشركون: إنه يقدم عليكم وقد هتتهم حمى يثرب : « رحم الله امرأة أراها اليوم من نفسه قوة »، وأمرهم أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركبتين (٢) .

وأما الثاني فغير مقبول بدليل حديث : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه : رجلٌ استشهد فأتى به، فعرفه نعمته فعرفها، قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ، قال : كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء، فقد قيل ، ثم أمر به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقي في النار . . . » (٣) .

ولا تعارض بين الرأيين، لأن الأول أجمل، والثاني فصلٌ، وجعل المدار على النية، وهو الأظهر الذي يشهد له حديث الباب:، وحديث : « إنما الأعمال بالنيات . . . » .

الجانب الثالث : حكم القتال للرياء وأدلة هذا الحكم :

قال نفرٌ من العلماء - منهم القرطبي صاحب المفهم : القتال رياءٌ : شركٌ مهلكٌ صاحبه، ومستوجبٌ له النار، مستدلين بحديث الباب: حيث لم يذكر من مبررات كون الجهاد في سبيل الله سوى إعلاء كلمة الله، وسكت عن الباقي بما فيه الرياء، وكأن سكوته هذا إعلان بأن ما عدا إعلاء كلمة الله ليس جهاداً في سبيل الله (٤) ، ويشهد لكلامهم قوله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ : « وإن قاتلت مرائياً مكاثراً، بعثك الله مرائياً مكاثراً، على أى حال قاتلت أو قُتلت بعثك الله بتلك الحال » (٥) .

وقوله ﷺ : « الغزو غزوان : فأما من ابتغى وجه الله، وأطاع الإمام، وأنفق

(١) أخرجه الطبراني في : المعجم الكبير: مسند سماك بن خرشة (أبي دجانة الأنصاري) (١٠٤/٧ رقم ٦٥٠٨، وأورده الهيثمي في : مجمع الزوائد : كتاب المغازي : باب : منه في وقعة أحد ١٠٩/٦، وعزاه إلى الطبراني قائلأ : « رواه الطبراني ، وفيه من لم أعرفه » .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب المغازي : باب : عمرة القضاء، ص ٧٢١، رقم ٤٢٥٦ من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعاً .

(٣) الحديث سبق تخريجه في : المجلد الأول ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٤) انظر : المفهم ٧٤٢/٣ بتصرف .

(٥) الحديث سبق تخريجه في : المجلد الأول ، ص ٣١٦ .

الكريمة، وبأسر الشريك، واجتنب الفساد، فإن نومه ونبيه أجرٌ له ، وأما من غز فخرًا ورياءً، وسمعة، وعصى الإمام وأفسد فى الأرض، فإنه لم يرجع بالكفاف « (١) .

وفرق ابن بطلال، وابن حجر بين أن يكون مقصوده تشجيع الآخرين كى يقدموا، ولا يتقاعسوا، ولا يتوانوا، وبين أن يكون مقصوده إرضاء الناس، والظفر منهم بالمحمدة، والثناء بل والمكافأة، أما الأول فمقبول لحديث : « من سنَّ فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » (٢) .

وأما الثانى فغير مقبول ؛ لأنه نوع من الشرك، والشرك محبط العمل، موجب النار، والعياذ بالله (٣) .

ولا تعارض بين الرأيين، لأن الأول أجمل، وهذا فصلٌ، وجعل المدار على النية، وهذا هو الأليق الذى يشهد له حديث الباب:، وحديث النية، ومقاصد الشريعة .

الجانب الرابع : حكم القتال حميةً، وأدلة هذا الحكم :

ذهب فريق من العلماء إلى أن القتال حميةً محبط العمل، مستوجب الوزر مستدلين بحديث الباب:، حيث اقتصر فى مبررات كون الجهاد فى سبيل الله على إعلاء كلمة الله .

ويشهد لهم حديث قُزَمان الذى كان يقول فيه النبى ﷺ إذا ذكر عنده : « إنه لمن أهل النار »، وقد صدقت الأيام ما قال النبى ﷺ ، إذ لما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً، فقتل وحده : ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس فأثبته الجراحة، فاحتمل إلى دار أبى ظفر، فجعل رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم يا قُزَمان فأبشر، قال : بماذا أبشر ؟ فوالله إن قاتلتُ إلا عن أحساب قومى، ولولا ذلك ما قاتلتُ، ثم لما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كناته فقتل به نفسه (٤) .

(١) الحديث سبق تخريجه فى : المجلد الأول ، ص ٣١٨ .

(٢) الحديث سبق تخريجه فى : المجلد الأول ، ٣٢٤ .

(٣) انظر : شرح صحيح البخارى لابن بطلال ٥/٢٥، ٢٦، وفتح البارى ٦/٣٥ بتصرف .

(٤) الحديث أورده ابن هشام فى : السيرة ٢/١٤٧، والطبرى فى : تاريخ الملوك والأمم ٢/٥٣١، وعبون الأثر لابن سيد الناس ١/٢١٠، ٢/١٦ من حديث عاصم بن عمر بن قتادة، وأخرجه البخارى بلفظ آخر فى : الصحيح : كتاب الجهاد والسير : باب : لا يقول فلان شهيد ٤/٤٥، وكتاب المغازى : باب : غزوة =

وفرق ابن بطلال وابن حجر بين أن تكون الحمية من أجل حماية الوطن ليقى دار إسلام تصان فيه الدماء، والأموال، والأعراض، والمقدسات، وبين أن تكون من أجل الأهل، والعشيرة، والأرض عصبية، أو تحزباً .

أما الأول : فمقبول لأنه صار داخلياً ضمن إعلاء كلمة الله التي هي المبرر الحقيقي لكون الجهاد في سبيل الله ^(١) ، ويشهد لذلك قوله سبحانه : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) ﴾ [النساء] .

وحديث : « من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد » ^(٢) .

وأما الآخر : فغير مقبول ؛ لأنه صار لغير الله، كما جاء في حديث قزمان المذكور آنفاً .

ولا تعارض بين القولين ؛ لأن الأول أجمل، والثاني فصل، وجعل النية هي المحور، وهي فصل الخطاب، ولعل هذا هو الذي تؤيده نصوص الكتاب والسنة، ومقاصد الشريعة .

أحباب الخامس : حكم القتال غضباً . وأدلة هذا الحكم :

ذهب نفر من العلماء إلى أن القتال غضباً لا يوجب لصاحبه أجراً بل يأنم به، وعمله باطل، مستدلين بحديث الباب، حيث لم يذكر من مبررات كون الجهاد في سبيل الله سوى إعلاء كلمة الله، أما باقي المبررات التي جاءت في سؤال السائل، ومنها : الغضب، فقد أضرب عنها صفحاً، ولم يقم لها وزناً .

= خير ١٧٠/٥، وكتاب القدر: باب : الأعمال بالحواس، وما يخاف منها، وباب : العمل بالحواس
١٢٨/٨، ١٥٥، والإمام مسلم في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه
١٠٦/١ رقم ١٧٩، وأحمد في : المسند ٣٣٢/٥ من حديث سهل بن سعد الساعدي مرفوعاً، وأورده
الهيثمي في : مجمع الزوائد : كتاب المغازي والسير : باب : منه في وقعة أحد ١١٦/٦ بإسناد ابن هشام
والطبري، وإسناد البخاري ومسلم وأحمد، وعقب بقوله : « رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح »،
وانظر تخرجه في : من أخلاق النصر، ص ٢٠٢ .

انظر : شرح صحيح البخاري لابن بطلال ٢٥/٥، ٢٦، وفتح الباري لابن حجر ٣٥/٦ .
الحديث أخرجه النسائي في : السنن : كتاب السنة : باب : في قتال اللصوص، ص ٦٧٥ رقم ٤٧٧٢،
وأبو داود في : السنن : كتاب الديات : باب : ما جاء فيمن قاتل دون ماله فهو شهيد ص ٣٤٣، ٣٤٤
رقم ١٤٢١ كلاهما من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه مرفوعاً .

وفصل آخرون بين أن يكون الغضب لله، وبين أن يكون للنفس، أما الأول فمحمود، لأنه صار والحال هذه قتالاً في سبيل إعلاء كلمة الله، وصيانة حرمانه (١)، ويشهد لذلك حديث عمرو بن أقيش المعروف بأصيرم بن عبد الأشهل: «إذ كان له رباً في الجاهلية فكره أن يسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أحد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأحد، قال: بأحد، فلبس لأمته، وركب فرسه، ثم توجه قبّلهم، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنّا يا عمرو، قال: إني قد آمنت، فقاتل قتالاً حتى جرح، فحمل إلى أهله جريحاً، فجاءه سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال لأخيه سلمة: حمية لقومه، أو غضباً لله ورسوله، فقال: بل غضباً لله ورسوله، فمات فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة» (٢).

وأما الآخر فمردود؛ لأنه صار والحال هذه لغير الله، وكل ما كان لغير الله فمردود، وباطل، إذ سأل عبد الله بن عمرو بن العاص رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ينقذني من غضب الله؟ قال: «لا تغضب» (٣).

ولا تعارض بين الرأيين، إذ الأول أجمل، والآخر فصل جاعلاً المدار على النية على نحو ما سبق به البيان في سائر الخصال الواردة في السؤال.

الجانب السادس: بعض النصوص الأخرى الواردة في معنى الحديث:

جاءت نصوص أخرى في معنى الحديث، منها:

قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...» (٤).

وقوله صلى الله عليه وسلم: «من غزا في سبيل الله، ولم ينو إلا عقلاً فله ما نوى» (٥).

وقوله صلى الله عليه وسلم: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم؟ قالت عائشة: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم؟ قال: «يخسف بأولهم، وآخرهم، ثم يُبعثون على نياتهم» (٦).

وقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص، وقد سأله عن: الجهاد والغزو: «إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً، وإن قاتلت مرائياً مكاثراً بعثك الله

(١) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢٥/٥، ٢٦، وفتح الباري لابن حجر ٣٥/٦ بتصرف.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في: السنن: كتاب الجهاد: باب: فيمن يسلم، ويقتل مكانه في سبيل الله، ٤٣/٣ رقم ٢٥٣٧، وعنه نقل الحافظ الذهبي في: تاريخ الإسلام: قسم المغازي ص ١٨٤، ١٨٥، وأورده الشيخ محمد يوسف في: حياة الصحابة، نقلاً عن ابن حجر في الإصابة، وقد عزاه ابن حجر بدوره إلى أبي داود، والحاكم، وعقب عليه بقوله: «هذا إسناد حسن» ١/٤٩٥، ٤٩٦.

(٣) الحديث أخرجه أحمد في: المسند ٢/١٧٥ من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً بهذا اللفظ.

(٤) هذه الأحاديث سبق تخريجها في: المجلد الأول، ص ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٥، ٣١٦.

مراثياً، مكاثراً، على أى حال قاتلتَ أو قُتِلتَ بعثك الله بتلك الحال « (١) ، إلى غير ذلك من النصوص .

ما يُستفاد من الحديث دعويّاً وتربويّاً :

يُستفاد من الحديث دعويّاً وتربويّاً فوائد، منها :

١ - الحرص على معرفة الحق أو الصواب لاسيما فى المسائل الشائكة أو المشكلة بحيث يقع العمل مطابقاً لهذا الحق أو الصواب، وبالتالي يكون القبول وما يتبعه من الأجر والثواب .

٢ - أن كلاً من الجهاد للمغنم، والشجاعة، والرياء، والحمية، والغضب قد يكون مقبولاً محفوفاً بالأجر والثواب، وقد يكون مردوداً مقروناً بالوزر، والعقاب، والمدار فى ذلك كله على النية، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

٣ - بلاغته ﷺ وبيانه، حيث ساق الجواب عاماً، وترك للمُخاطب مراجعة نفسه، إن كان يريد الأجر حسن النية وجعلها لله، وإن كان يريد غير ذلك دنس النية، وجعلها لغير الله .

٤ - الراجح أن الجهاد إذا كان لله أصلاً، وأدخل عليه المجاهد بعد ذلك قصد المغنم، فلا ضير لقوله سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴾ [البقرة : ١٩٨] ، أما إذا تساوى أو غلب طلب المغنم قصد إعلاء كلمة الله، فهنا يكون الحرج والوقوع فى المحذور، ومثل ذلك يقال فى القتال للحمية، والقتال للغضب .

٥ - أن مثل الطرق وأقومها لفقهِ الكتاب والسنة جمع النصوص ذات الموضوع الواحد، وربطها ببعضها، ومحاولة التأليف بين المتعارضات منها إما بالجمع، وإما بالترجيح، كما فى هذا الحديث، إذ ما كان يمكن فقهِه فقهاً دقيقاً سليماً إلا بسلوك هذه الطريق، وبذلك يقضى على انحراف السلوكيات، وخلل التطبيق .

٦ - أنه لا شئ يعدل الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، لما يترتب على إعلاء كلمة الله من نشر الحق والفضيلة، بل وتثبيت دعائمها، وكذلك من محاصرة الباطل والرديلة، وربما القضاء عليهما، الأمر الذى يأمن معه الناس كل الناس على دمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، ومقدساتهم وسائر الحرمات، ويعبد المؤمنون ربهم بحرية،

(١) هذا الحديث سبق تخريجه فى : المجلد الأول، ص ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٥، ٣١٦ .

وراحة بال، فضلاً عن وحدة الصف وجمع الكلمة، والغنى واليسار، وبعبارة أخرى تكون سعادة الدنيا، وفوز الآخرة.

٧ - أنه لا يحكم على واحد بعينه أتى عملاً يصلح للدنيا والآخرة : أن عمله مقبول أو غير مقبول، وإنما يفوض الأمر في ذلك إلى الله الذي يعلم خائنة الأعين ، وما تُخفي الصدور، أو مَنْ يطلع الله على ذلك من الأنبياء، والمرسلين، أما الحكم بالقبول، أو الرد على واحد بصفته فجائز بأن نقول : مَنْ أتى عملاً يريد به الدنيا، فعمله مردود، وَمَنْ أتاه يريد به الآخرة، فعمله مقبول؛ لأن ذلك ليس من قبيل الهجوم أو الجرأة على الغيب .

الحديث الخامس والثلاثون

عن أبي عثمان النهدي، عن حنظلة الأسدي، قال : وكان من كتاب رسول الله ﷺ - قال - لثبي أبو بكر، فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قال - قلت ما فاق حنظلة، قال - سبحان الله ما تقول ؟ قال : قلت نكروا عند رسول الله ﷺ بذكرنا بالنار والجنة، حتى كنا رأينا عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد، والضيقات، فنسبنا كثيراً، قال أبو بكر، فوالله إنا لننتقى مثل هذا، فاطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت ما فاق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ : « وما ذاك ؟ »، قلت : يا رسول الله، نكروا عندك، نذكرنا بالنار والجنة، حتى كنا رأينا عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيقات نسبنا كثيراً، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده، إن لو تدومون عسى ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة : ساعة، وساعة (ثلاث مرات) .

تخريج الحديث :

الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب التوبة : باب : فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة، والمراقبة، وجوار ترك ذلك في بعض الأوقات، والاشتغال بالدنيا ٤/٢١٠٦ رقم ١٢ (٢٧٥٠)، فقال : حدثنا يحيى بن يحيى التميمي، وقطن بن نسير (واللفظ ليحيى) قال : أخبرنا جعفر بن سليمان، عن سعيد بن إياس الجري، عن أبي عثمان النهدي، عن حنظلة الأسدي، وساق الحديث بهذا اللفظ، وقال : حدثني إسحاق بن منصور، قال أخبرنا عبد الصمد، قال سمعت أبي يحدث، قال : حدثنا سعيد الجري، عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة، قال : كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا، فذكر النار، قال : ثم جثت إلى البيت، فضاحكت الصبيان، ولاعبت المرأة، قال : فخرجت، فلقيت أبا بكر فذكرت ذلك له، فقال : وأنا قد فعلت مثل ما تذكر، فلقينا رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله، ناق حنظلة، فقال : « مه » فحدثه بالحديث، فقال أبو بكر : وأنا قد فعلت مثل ما فعل، فقال : « يا حنظلة :

ساعة وساعة، ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تُسَلِّمَ عليكم في الطرق» ، وقال حدثنا زهير بن حرب، قال حدثنا الفضل بن دكين، قال حدثنا سفيان عن سعيد بن الجريري، عن أبي عثمان النهدي، عن حنظلة التميمي الأسيدي الكاتب، قال : كنا عند النبي ﷺ فذكرنا الجنة والنار، فذكر نحو حديثهما .

والترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة : باب : منه ٥٤٧/٤ رقم ٢٤٥٢ عن عباس العنبري، عن أبي داود (الطيالسي)، عن عمران القطان عن قتادة عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن حنظلة الأسيدي، قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أنكم تكونون كما تكونون عندي لأظلتكم الملائكة بأجنحتها »، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روى هذا الحديث من غير هذا الوجه، عن حنظلة الأسيدي، عن النبي ﷺ، وفى الباب : عن أبي هريرة « ٥٧٤/٤، ٥٧٥ رقم ٢٥١٤ عن بشر بن هلال البصرى، عن هارون بن عبد الله البرزاز، عن سيار، كلاهما عن جعفر بن سليمان، عن سعيد الجريري، عن أبي عثمان النهدي، عن حنظلة، وكان من كتاب النبي ﷺ أنه مرَّ بأبي بكر وهو يبكي . . . الحديث، وقال فى آخره : « . . . ولكن : يا حنظلة ساعة، وساعة، وساعة »، ثلاث مرات، بدل مرتين، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح »، وكتاب صفة الجنة : باب : فى صفة الجنة ونعيمها ٥٨٠/٤ رقم ٢٥٢٦ عن أبي كريب، عن محمد بن فضيل، عن حمزة الزيات، عن زياد الطائي، عن أبي هريرة ؓ قال : قلنا يا رسول الله : ما لنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا فى الدنيا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك فأنسنا أهلينا، وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لو أنكم تكونون إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك، لزارتكم الملائكة فى بيوتكم . . . » الحديث، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث ليس إسناده بذاك القوى، وليس هو عندي بمتصل، وقد روى هذا الحديث بإسناد آخر، عن أبي مدلة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . »

وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب : المداومة على العمل ١٤١٦/٢ رقم ٤٢٣٩ عن أبي بكر بن أبي شيبة عن الفضل بن دكين، عن سفيان، عن الجريري، عن أبي عثمان، عن حنظلة الكاتب التميمي الأسيدي، قال : كنا عند رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار حتى كانا رأى العين، فقمتم إلى أهلى وولدى، فضحكت، ولعبت، قال : فذكرت الذى كنا فيه، فخرجت فلقيت أبا بكر، فقلت : نافقت، نافقت، فقال

أبو بكر : إنا لنفعله، فذهب حنظلة فذكره للنبي ﷺ، فقال : « يا حنظلة، لو كنتم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم، أو على طرفكم، يا حنظلة : ساعة، وساعة ».

وأحمد في : المسند ١٧٨/٤ بإسناد مسلم الثاني إلى حنظلة، قال : كنا عند رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار حتى كأننا رأى عين، فأتيتُ أهلى وولدى فضحكت، ولعبت، وذكرت الذى كنا فيه، فخرجت فلقيتُ أبا بكر، فقلت : نافقت، نافقت، فقال : إنا لنفعله، فأتيتُ النبي ﷺ فذكرتُ ذلك له، فقال : « يا حنظلة، لو كنتم تكونون كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم، أو فى طريقكم، أو كلمة نحو هذا - هكذا قال هو، يعنى : سفيان : يا حنظلة ساعة، وساعة »، ٣٤٦/٤ عن أبى أحمد الزبيرى قال : حدثنا سفيان، عن الجريرى، عن أبى عثمان، عن حنظلة قال : كنا مع رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار، حتى كأننا رأى عين، فقمْتُ إلى أهلى فضحكت ولعبت مع أهلى، وولدى، فذكرت ما كنت عند رسول الله ﷺ فخرجت، فلقيتُ أبا بكر، فقلت : يا أبا بكر : نافق حنظلة، قال : وما ذاك، قلت : كنا عند رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار، حتى كأننا رأى عين، فذهبتُ إلى أهلى فضحكت ولعبت مع ولدى وأهلى، فقال : إنا لنفعل ذلك، قال : فذهبتُ إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال : « يا حنظلة، لو كنتم تكونون فى بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة، وأنتم على فرشكم، وبالطرق، يا حنظلة، ساعة، وساعة ».

وبالإسناد الأول عند الترمذى، ولكن بلفظ : قلتُ يا رسول الله : إنا إذا كنا عندك كنا، وإذا فارقتنا كنا على غير ذلك، فقال : والذى نفسى بيده لو كنتم تكونون على الحال التى تكونون عندي لصافحتكم الملائكة، ولأظلتكم بأجنحتها ».

وبنظرة خاطفة فى الأسانيد التى روى بها هذا الحديث يظهر أن :

١ - الإسناد الأول عند مسلم «صحيح»، وإذا كان فيه : «قطن بن نسير» وهو - كما فى التقريب ١٢٦/٢ : « صدوق يخطئ »، فإن ذلك لا يضره ؛ لأن معه يحيى بن يحيى التميمى، وهو - كما فى التقريب ٣٦٠/٢ : « ثقة ثبت إمام » وإذا كان فيه : «جعفر بن سليمان الضبعى» وهو - كما فى التقريب ١٣١/١ : « صدوق زاهد، لكنه كان يتشيع »، فإن ذلك لا يضره ؛ لأن التشيع هنا يراد به محبة : « على وآل بيته »،

٤٠٠ _____ توجيهات نبوية على الطريق
دون الخط على الشيخين أو غيرهما من الصحابة على أنه إذا كان بدعة، فإنها ليست
مكفرة يرد بها الحديث، كما أن الحديث ليس دعوة إليها .

وإذا كان فيه : « سعيد بن إياس الجريري »، وهو كما قال ابن حجر في: التقريب
٢٩١/١ : « ثقة من الخامسة اختلط قبل موته بثلاث سنين »، فإن ذلك لا يضره، إذ
يحمل الأمر - كما قال أبو عمرو بن الصلاح فيما نقله عنه تلميذه محيي الدين النووي
في مقدمة المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٨/١ - على أن الاختلاط طراً بعد
أخذ مسلم عنه .

وكذلك الإسناد الثاني عن مسلم « صحيح »، ووجود سعيد بن إياس الجريري به
لا يضره كما تقدم في الإسناد الأول .

والإسناد الثالث : « صحيح » أيضاً : وإذا كان فيه سفيان الثوري، وهو كما قال
ابن حجر في التقريب ٣١١/١ : « ثقة حافظ، فقيه، عابد، إمام، حجة، من رؤوس
الطبقة السابعة، وكان ربما دلس »، فإن ذلك لا يضره لأنه كما قال الذهبي في : ميزان
الاعتدال ١٦٩/٢ : « كان له نقد وذوق »، يعني يعي ما يحمل وما يروى - ولذا أكمل
الذهبي فقال : « ولا عبرة لقول من قال : « يدلس ، ويكتب عن الكذابين » .

وقد جمع مسلم في سياقه أسانيد هذا الحديث بين العالي منها، وهو الأول، وبين
النازل وهو الثاني ، وهو من مفاريد .

٢ - الإسناد الأول عند الترمذي فيه : « عمران القطان »، وهو كما في : التقريب
٨٣/٢ : « صدوق بهم ورُمى برأى الخوارج » ، وروى عباس الدوري عن يحيى كما
في الميزان ٢٣٦/٣، ٢٣٧ فقال : كان عمران القطان يرى رأى الخوارج، ولم يكن
داعية، فهو كما قال الترمذي : « حسن غريب من هذا الوجه » .

والإسناد الثاني عند الترمذي أيضاً فيه : « سيار بن حاتم »، وهو كما في :
التقريب ٣٤٣/١ : « صدوق له أوهام »، وفيه : « سعيد الجريري »، وقد تقدم الكلام
فيه .

والإسناد الثالث أعله الترمذي نفسه بقوله : « هذا حديث ليس إسناده بذاك القوى،
وليس هو عندي بمتصل » ، ولعله يشير بذلك إلى : « زياد الطائي » فإنه كما يقول

ابن حجر فى : التقريب ١/٢٧١ : « مجهول، أرسل عن أبى هريرة »، فضلاً عن أن «حمزة الزيات» مع كونه صدوقاً، ربما يهم كما فى : التقريب ١/١٩٩، ثم بين أن الانقطاع فى هذه الرواية قد وصل بمجىء الحديث بإسناد آخر إلى أبى مدلة مولى عائشة، عن أبى هريرة، رفعه .

أضواء على حياة الصحابى راوى الحديث :

راوى هذا الحديث هو الصحابى الجليل: حنظلة بن الربيع ينتهى نسبه إلى أسيد بن عمرو بن تميم، فيقال فى نسبه : « الأسيدى، التميمى »، كنيته : أبو ربيعى ولقبه : الكاتب، حيث جعله النبى ﷺ خليفة كل كاتب من كتابه إذا غاب عن عمله، فغلب عليه اسم الكاتب، وكان يضع عنده خاتمه، فقال له : الزمنى، وأذكرنى بكل شىء أنا فيه، وكان لا يأتى على مال، ولا طعام ثلاثة أيام إلا أذكره فلا يبيت ﷺ وعنده منه شىء .

ومرّ رسول الله ﷺ يوماً بامرأة مقتولة يوم فتح مكة فقال لحنظلة : الحق خالداً، وقل له : لا تقتلن ذرية، ولا عسيفاً - أى : أجيراً .

وبعثه ﷺ إلى أهل الطائف : أتريدون الصلح أم لا ؟ فلما توجه إليهم قال رسول الله ﷺ : « ائتموا بهذا ، وأشباهه » .

وكتب لأبى بكر الصديق فى خلافته - بعد أن التحق ﷺ بالرفيق الأعلى ، وشارك خالد بن الوليد حروبه فى العراق .

كما شارك فى معركة القادسية على عند عمر ﷺ ومن مناقبه آنذاك : أنه لما وجه عمر بن الخطاب ﷺ سعداً إلى العراق، وكتب إليه أن يسبع القبائل أسباعاً، ويجعل على كل سبع رجلاً، فعل سعد ذلك، وجعل السبع الثالث تميمًا، وأسداً، وغطفان، وهوازن، وأميرهم حنظلة بن الربيع هذا، بل كان أحد من سير إلى يزدجرد يدعوه إلى الإسلام، نزل الكوفة، وتخلّف عن على يوم الجمل، حيث لم يظهر له مع من يكون الصواب أو الحق ؟ وحين سمع سب عثمان علانية خرج من الكوفة إلى قريسياء^(١) ،

قريسياء : بالفتح ثم السكون : وقاف أخرى، وباء ساكنة، وسين مكسورة، وباء أخرى، وألف معدودة، بلد على نهر الخابور، قرب رجة مالك بن طوق على ستة فراسخ، وعندها مصب الخابور فى الفرات فهى فى مثلث بين الخابور والفرات، انظر : معجم البلدان ٤/٣٢٨ .

واعترزل فيها قائلاً : « لا أقيم في بلد يُشتم فيه عثمان »، وظل بها حتى وافته منيته بعد على، وكان كثير التفقد لقلبه، حاضر الدمعة، متهمًا نفسه دومًا بالتقصير، والحديث الذي نحن بصدد شرحه وبيانه الآن خير شاهد على ذلك .

ومن خلال هذا العرض تبرز عدة حقائق منها :

١ - أنه كان على الهمة، قوى الإرادة، صادق العزيمة، بدليل هذه المهام الجليلة التي كانت منوطة به، وقام بإحرازها جميعاً دون أن يؤثر عنه فتور أو تقصير .

٢ - كما كان ذا عقل ووعى، يفرق بين ما ينبغى أن يدخل فيه، وبين ما ينبغى أن يعتزله .

٣ - وأنه كان محل ثقة رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر وعمر .

٤ - وأن الذي صنع منه جميع ما تقدم إنما هو إيمانه القوى، وإخلاصه وصدقه مع الله، واتباعه للسنّة، مع تفقده لقلبه دومًا واتهامه نفسه بالتقصير، والحرص على الإنابة والتوبة .

هذا، وقد روى عن النبي ﷺ ثلاثة أحاديث، أخرج اثنين منها: مسلم والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وروى عنه جماعة منهم : الحسن البصرى، وقيس بن زهير، وابن ابن أخيه المرقع بن صيفى بن رياح، والهيثم بن خنث، ويزيد بن عبد الله بن الشخير، وأبو عثمان النهدي^(١) .

سبب ورود الحديث :

وسبب ورود الحديث ما جاء مبيناً فيه من اتهام حنظلة لنفسه بالنفاق، وسعيه إلى النبي ليجد عنده المخرج، وحكايته لحاله عند النبي ﷺ وفى بيته مع زوجته وأولاده وأمواله، وليس لمعرفة هذا السبب من كبير فائدة فى فقه الحديث، إذ العبرة بعموم

(١) انظر : طبقات خليفة ص ٤٣، ١٢٩، العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى ٣/٢٩٨، ٤/٢٤٤، ٢٤٥، الثقات لابن حبان ٣/٩٢، تاريخ الصحابة لابن حبان ص ٧٩، ترجمة رقم ٣٠٩، الجمع بين رجال الصحيحين ١/١١٠، ترجمة رقم ٤٢٥، الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٢/٢١٣ باب : ذكر من كان يكتب لرسول الله ﷺ، تاريخ دمشق لابن عساکر (٥/١٣ - ١٥ تهذيب دمشق لابن بدران)، تهذيب الكمال للمزى ٧/٤٣٨، ٤٤٣ ترجمة رقم ١٥٦٠، تاريخ الإسلام للذهبى ص ٤٤، ٤٥ حوادث سنة ٥٠هـ، تخريج الدلالات السمعية لعلى بن محمد المعروف بالخزاعى ص ١٧٨، ١٧٩ .

اللفظ، لا بخصوص السبب، ما لم تقم قرينة تدل على خلاف ذلك، ولا قرينة هنا، غير أنه يكشف عن طيب معدن الصحابة، وكيف كانت قضية الإيمان والقلوب هي الشغل الشاغل لديهم، حتى كانوا يقدمونها على كل شيء في حياتهم من طعام، وشراب، وزوجة وولد، ومال، وغير ذلك، ويحرصون على السؤال عما يجهلون، موقنين أن شفاء العيِّ السؤال .

معاني المفردات والجمل :

قوله : « كيف أنت يا حنظلة ؟ » : سؤال عن حاله وصحته، تقديره : في أى حال أو على أى حال أنت ، وهل أنت صحيح مُعافى ؟ وعليه فكيف : اسم استفهام في محل رفع خير مقدم، وأنت مبتدأ مؤخر .

قوله : « قلت : نافق حنظلة » : معناه كما قال ابن علان في دليل الفالحين ٤٠١/١ : « أى خاف على نفسه النفاق لما كان يحصل له من الخوف في مجلس النبي ﷺ ويظهر عليه فتح كمال المراقبة والفكر، والإقبال على الآخرة، فإذا خرج، واشتغل بما سيأتى ^(١) ذهب عنه ذلك، وأصل النفاق إظهار ما يكتم خلافه من الشر، وهو نوعان : أكبر وهو الذى يكون فى أصل الدين، حيث يكون صاحبه كافرًا فى حقيقة حاله، منتسبًا إلى الإسلام فى ظاهره، وأصغر، وهو الذى لا يكون فى أصل الدين ، وإنما يكون فى العمل، وصاحبه لا يكون كافرًا خارجًا عن الإسلام فى حقيقته، بل يكون عاصيًا ^(٢) وقد تضمنت الأحاديث بعض صفات هذا الصنف من المنافقين، إذ يروى عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أوثمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر » ^(٣) .

(١) انظر : دليل الفالحين ٤٠١/١، نقلًا عن النووى فى : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٥٩٤/٥ بتصرف إذ عبارة النووى : « قوله : [نافق حنظلة] : معناه أنه خاف أنه منافق، حيث كان يحصل له الخوف فى مجلس النبي ﷺ، ويظهر عليه ذلك مع المراقبة، والفكر، والإقبال على الآخرة، فإذا خرج اشتغل بالزوجة، والأولاد، ومعاش الدنيا، وأصل النفاق : إظهار ما يكتم خلافه من الشر ، فخاف أن يكون ذلك نفاقًا » .

(٢) انظر : فتح البارى ٨٩/١ بتصرف : إذ نص عبارته : « والنفاق لغة : مخالفة الباطن للظاهر، فإن كان فى اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر، وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والتترك وتفاوت مراتبه » .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : علامة المنافق ١٥/١ عن قبيصة بن عقبة، عن سفيان، وقال بعده : « تابعه شعبة عن الأعمش، وكتاب المظالم : باب : إذا خاصم فجر ٣/١٧٢ عن =

ويروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » ^(١) ، فالمراد بالنفاق هنا نفاق العمل على الراجح

= بشر بن خالد عن محمد بن جعفر (غندر) ، عن شعبة ، وكتاب الجزية والموادعة : باب : إثم من عاهد ثم غدر ١٢٤/٤ عن قتيبة بن سعيد ، عن جرير .

ومسلم في : الصحيح ، كتاب الإيمان : باب : بيان خصال المنافق ٧٨/١ رقم ١٠٦ عن أبي بكر بن أبي شيبة ، ومحمد بن عبد الله بن نمير كلاهما عن عبد الله بن نمير ، وعن زهير بن حرب ، عن وكيع عن سفيان أربعمتهم [أعنى : سفيان ، وشعبة ، وجرير ، وعبد الله بن نمير] ، عن الأعمش ، عن عبد الله ابن مرة ، عن مسروق بن الأجدع ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً بهذا اللفظ وينحوه .

وأبو داود في : السنن : كتاب السنة : باب : الدليل على زيادة الإيمان ونقصه ٦٤/٥ رقم ٤٦٨٨ عن أبي بكر بن أبي شيبة به .

والترمذي في : السنن : كتاب الإيمان : باب : في علامة المنافق ٢٠/٥ ، ٢١ رقم ٢٦٣٢ عن الحسن ابن علي الخلال ، عن عبد الله بن نمير به ، وعن محمود بن غيلان ، عن عبيد الله بن موسى عن سفيان به ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

والنسائي في : السنن : كتاب الإيمان وشرائعه : باب : علامة المنافق ١١٦/٨ [المجتبى] ٥٣٥/٦ [الكبرى] رقم ١١٧٥١ ، وكتاب السير : باب : الغدر ٢٢٤/٥ رقم ٨٧٣٤ [الكبرى] عن بشر بن خالد به .

الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : علامة المنافق ١٥/١ ، وكتاب الوصايا : باب : قول الله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ ﴾ [النساء : ١١] ٥/٤ ، ٦ عن أبي الربيع

الزهراني ، وكتاب الشهادات : باب : من أمر بإنجاز الوعد ٢٣٦/٣ ، وكتاب الأدب : باب : قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١٩] ٨/١ ٣٠ عن محمد بن سلام ،

ومسلم في الصحيح ، كتاب الإيمان : باب : بيان خصال المنافق ٧٨/١ ، ٧٩ رقم ١٠٧ عن يحيى بن أيوب وقتيبة ، والترمذي في : السنن : كتاب الإيمان : باب : ما جاء في علامة المنافق ٢٠/٥ رقم

٢٦٣١ ، عن علي بن حجر ، والنسائي في : السنن : كتاب الإيمان وشرائعه : باب : علامة المنافق ١١٦/٨ ، ١١٧ عن علي بن حجر خمستهم [أعنى : أبا الربيع الزهراني ، ومحمد بن سلام ، ويحيى بن

أيوب ، وقتيبة ، وعلي بن حجر] عن إسماعيل بن جعفر ، عن أبي سهيل نافع بن مالك ، عن أبيه ، عن أبي هريرة مرفوعاً به ، وعقّب الترمذي على حديثه بقوله : « هذا حديث صحيح ، وأبو سهيل هو عم

مالك بن أنس ، واسمه : نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي الخولاني » .

ومسلم في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : بيان خصال المنافق ٧٨/١ رقم ١٠٩ عن عقبة بن مكرم العمي ، والترمذي في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : ما جاء في علامة المنافق ٢٠/٥ رقم ٢٦٣١ عن

عمرو بن علي ، كلاهما عن يحيى بن محمد بن قيس أبو زكير ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة مرفوعاً به ، غير أن مسلماً زاد في روايته قوله : « وإن صام ، وصلى ، وزعم أنه مسلم » ،

وعقّب عليه الترمذي بقوله : « هذا حديث حسن غريب من حديث العلاء ، وقد روى من غير وجه ، عن أبي هريرة : عن النبي ﷺ ، ومسلم في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : بيان خصال المنافق ٧٨/١

رقم ١٠٨ عن أبي بكر محمد بن إسحاق الصفاني ، عن سعيد بن أبي مريم ، عن محمد بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ : « من علامات المنافق ثلاثة ... » .

الحديث ، رقم ١١٠ عن أبي نصر التمار ، وعبد الأعلى بن حماد ، كلاهما عن حماد بن سلمة ، عن داود ابن أبي هند عن سعيد بن المسيب ، وعن أبي هريرة مرفوعاً بمثل حديث يحيى بن محمد عن العلاء أي

ذكر فيه : « وإن صام ، وصلى ، وزعم أنه مسلم » .

بدليل قوله في الحديث الأول : « كان منافقًا خالصًا » ^(١) .

وتدور هذه المادة على (النون، والفاء، والقاف) ولذلك معانٍ منها :

١ - الرواج والربح، نقول : نفق البيع نفاقًا كسحاب : راج، وريح .

٢ - الموت والقناء والنفاد، أو القلة، نقول : نفق الرجل، والدابة نفوقًا : ماتا، ونفق الجرح : تقشر، ونفق الزاد، ونفق كفرح، ونصر : نفذ، وفنى، أو قل .

٣ - كتمان شيء وإظهار غيره، نقول : نفق، ونافق في الدين : ستر كفره، وأظهر إيمانه، ومنه النافقاء، والنفقة كهزمة إحدى جحرة اليربوع يكتمها، ويظهر غيرها، فإذا أتى من جهة القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق ^(٢) .

والعلاقة بين المعاني اللغوية، والمعنى الاصطلاحي أو الشرعي بينة واضحة إذ المنافق يسلك طريق الالتواء ظانًا أن ذلك يقيه الفضيحة والمؤاخذه ويحقق له الربح والمصلحة والحقيقة أنه لا يظفر بشيء لا في الدنيا، ولا في الآخرة .

إذ المؤمنون يعرفونه في الدنيا بسمته، ومن خلال لحنه في القول كما قال الحق - تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ... ﴾ [محمد : ٣٠] ، ولذلك يحذرونه .

• وأما في الآخرة فعقابه ما أخبر عنه الحق - تبارك وتعالى - بقوله : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) ﴾ [النساء : ١٤٥] .

وقد جمع الله سوء مقصدهم هذا وسوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة بسببه فقال : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ [البقرة : ٩] ، ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ... ﴾ [النساء : ١٤٢] .

ونقل الشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمِين الحلبي عن ابن الأعرابي قوله : « وفي الاعتدال ^(٣) لتسمية المنافق منافقًا ثلاثة أوجه : أحدها : أنه يُسِرُّ كفره ويخفيه،

(١) انظر : فتح الباري ١/٨٨، وفي التوفيق بين العلامات الثلاث والأربع .

(٢) انظر : القاموس المحيط ٣/١٤، والمعجم الوسيط ٢/٩٤٢، وظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ ٥٢/١، ٥٣ بتصرف .

(٣) هكذا في الأصل ، ولعل صوابها : « الاعتلال » بمعنى العلة، إذ هذا هو المناسب للسياق، والله أعلم .

فشبه بالذى يدخل النفاق، وهو السُّرْب يستتر فيه ، والثانى : أنه نافع كاليربوع، وذلك أن اليربوع له جحران أحدهما يقال له : النافقاء، والآخر : القاصعاء، فإذا طُلب من النافقاء خرج من القاصعاء، والثالث : أنه شبه به لمخادعته، وذلك أن اليربوع يحفر الأرض من تحتها حتى يرقها جدًّا، فإذا طُلب من باب: جُحره عمد إلى ذلك الموضع الذى رقق ترابه بحفره، ودفعه برأسه خارجًا، فظاهر جُحره أرض، وباطنه حفر، فكذلك المنافق، ظاهره مؤمن، وباطنه كافر « (١) .

وتبعًا لما تقدم عن النفاق يظهر أن نسبة حنظلة النفاق إلى نفسه وموافقة الصديق له إنما هى من قبيل الخوف، والإشفاق على أنفسهما أن تكون الغفلة عن ذكر الله، والدار الآخرة، انشغالا بمتاع الحياة الدنيا من نقص الإيمان، وأن يكون ذلك بسبب شوائب النفاق (٢) .

« سبحان الله : ما تقول ؟ » : تنزيهاً لله، وقد قالها الصديق تعجباً مما قال، حيث خفى عليه سبب ذلك ، كأنه يقول : إني لضعفى وقصورى البشرى خفى على سبب ما قلت، أما الذى لا يخفى عليه ذلك ولا غيره فإتما هو الحق تبارك وتعالى، المنزه عن كل نقص ، والموصوف بكل كمال ، وهكذا كان يذكر النبى ﷺ ربه بذلك حين يقع ما يدعوه إلى الاستغراب والتعجب .

« ما تقول ؟ » : معناه : ما الذى تقول، أى : تأمله، وانظر فيه جيداً .

« كأننا رأى عين » : يعنى كأننا نراها رأى عين وهو منصوب على أن مصدر مفعول مطلق لفعل محذوف، والجملة فى محل رفع خبر كان، ويجوز الرفع على أنه خبر كان، قال القاضى عياض (٣) : « ضبطناه بالرفع أى: كأننا ذوو رأى عين، أى بحال من يراهما » .

« عافسنا الأزواج والأولاد » : عالجنا، ومارسنا، ولاعبنا، إذ المعافسة : المعالجة، والممارسة، والملاعبة (٤) ، قال النووى : « وروى الخطابى هذا الحرف [عانسنا]

(١) انظر : عمدة الحفاظ فى تفسير أشرف الألفاظ ٤/٢٣٩، ٢٤٠ .

(٢) انظر : ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين فى التاريخ ١/٨٠ .

(٣) انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووى ٥/٥٩٣، ودليل الفالحين لابن علان ١/٤٠١ بتصرف .

(٤) انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/١١٠ .

بالنون، قال : ومعناه لاعبنا «، ورواه ابن قتيبة بالشين المعجمة، قال ومعناه : عانقتنا، والأول هو المعروف، وهو أعم^(١) .

« والضيعات » : جمع ضيعة، وهي معاش الرجل من مال، أو حرفة : تجارة أو صناعة، أو زراعة ونحوها^(٢) .

« فسنينا كثيراً » : قال ابن علان : « أى : إذا خرجنا واشتغلنا بهذه الأمور، وذهب منا ذلك الحال الذى كان ونحن عند النبي ﷺ وسماع موعظته ومشاهدته »^(٣) .

« فوالله لنلقى مثل هذا » : قائل هذه الجملة هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ومراده بذلك أنه يقع له مثل ما يقع لحنظلة، ولئن كان هذا نفاقاً فهو منافق .

« وما ذاك ؟ » : أى : ما الذى نافق به ؟ يعنى : اذكر السبب الذى من أجله قلت عن نفسك إنك منافق، وقائل هذه الجملة : إنما هو النبي ﷺ .

« والذى نفسى بيده » : هذه صيغة قسمه ﷺ فى كثير من أحيائه، ومعناها : أحلف بالله الذى ناصيتى وروحى بيده، يقدر أن يُخرسنى ويقبضنى توأ إن أنا افتريت على الله الكذب فأخبرتكم بما لا يصح، وبما لا يرضاه، والمقصود من هذه الجملة تطمين وتثبيت حنظلة ومعه الصديق ومن على شاكلتهما أن ما يلقى عليهم حق وصدق، إذ هو معصوم لا ينطق عن الهوى .

« لو تدومون على ما تكونون عليه عندي » : من المراقبة، والتفكير فى المآل، والإقبال على الله تعالى .

« وفى الذكر » : هكذا بالعطف، وهو يشعر : أن مصافحة الملائكة لهم على الفرش، وفى الطرقات مرهونة بأمرين : الاستمرار على الحال التى يكونون عليها عند النبي ﷺ والمواظبة على الذكر .

قال القرطبى : « هكذا صحت الرواية بالواو العاطفة للظرف الثانى على الظرف الأول، فيفيد أن مصافحة الملائكة فى قوله : « لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم » موقوفة على حصول حالتين لنا .

(١) انظر : المنهاج ٥/٥٩٣ .

(٢) انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/٢٩ .

(٣) انظر : دليل القالحين ١/٤٠١ .

على حال مشاهدة الجنة والنار مع ذكر الله تعالى، ودوام ذلك، فيعني - والله أعلم - أن التمكّن هو أن يشاهد الأمور كلها بالله، فإذا شاهد الجنة لم يحجبه ما شاهد من نعيمها، وحسنها عن رؤية الله تعالى، ومحل رؤيته، ومشاهدته، فيكون فرقه في جمعه، وعطاؤه في منعه، ومن كان هكذا ناسب الملائكة في معرفتها، فبادرت إلى إكرامه ومشافهته، وإعظامه، ومصافحته» (١).

«ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»: النصب على أنه مفعول فيه لفعل محذوف، والتقدير: تذكر ساعة، وتلهو ساعة، والرفع على أنه: مبتدأ وخبره محذوف مقدم عليه لكونه نكرة، تقديره: لنا ساعة؛ ولله ساعة.

قال أبو البقاء العكبري: «يجوز النصب على معنى: تذكر ساعة، وتلهو ساعة، والرفع على تقدير: لنا ساعة، ولله ساعة» (٢).

والساعة تقاسير على معان عدة، منها:

أ - الجزء من أجزاء الوقت والحين، وإن قل.

ب - الجزء من أربعة وعشرين جزءاً من الليل والنهار.

ج - القيامة، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُدِّ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم: ١٤].

د - الآلة يعرف بها الوقت بالساعات، والدقائق والثواني شمسية، أو رملية، أو مائية، أو الإلكترونية (٣) ونحوها والمراد بها في الحديث: المعنى الأول يعني: البرهة أو الجزء من أجزاء الوقت، والحين، وإن قل.

المعنى العام أو لإجمالي للحديث:

يشعر المرء من نفسه: أن تعتربه فترات يقوى إيمانه فيها، وتزكو نفسه وتشرق حتى لكأنه ملك من الملائكة يتحرك ويعيش على ظهر هذه الأرض في صورة بشر، كما تعتربه فترات أخرى يضعف إيمانه، وينكر نفسه، ويضيق صدره حتى لكان نفسه ليست هي النفس التي عرف، وقلبه ليس هو القلب الذي ألف.

والمطلوب منه في الحالين: حال قوة الإيمان والنشاط والهمة، وحال ضعف

انظر: دليل الفالحين ١/٤٠٢، ٤٠٣.

انظر: إعراب الحديث النبوي، ص ١٧٥، حديث رقم ١٥٦.

انظر: القاموس المحيط ٣/٦٠، الصحاح في اللغة والعلوم، ص ٥١٨، والمعجم الوسيط: ١/٤٦٣.

الإيمان، والركون والعجز : أن يفتش باحثًا عن السبب، ثم يستثمر هذا السبب في تنمية الإيمان وتقويته، أو في مقاومة هذا الضعف، ونبذه، والقضاء عليه .

والحديث الذى نحن بصدد بيانه والكلام عليه الآن يحمل صورة عملية دقيقة لما نقول: إذ فيه يلقي الصديق الصحابي الجليل : حنظلة بن الربيع الكاتب الأسيدي، فيسأله عن حاله، وعن صحبته، فيجيبه أنه صار منافقًا، ويعجب الصديق من جوابه هذا، ويسأله عن سبب اتهامه نفسه بالنفاق، وهو يعرف منه في الظاهر خلاف ذلك يجيب : إنه حين يكون بين يدى النبي ﷺ وهو يذكرهم يقوى إيمانه، ويعظم يقينه، وتصديق لديه المراقبة ، حتى لكان الجنة والنار قد مثلتا أمامه، وصارتا حاضرتين كأنه يراهما رأى العين، ولكنه بعد أن يقوم من مجلس النبي ﷺ ويعود إلى بيته، ويشغل بمداعبة أهله، وملاعبة أولاده، ومعاينة أمواله، وديناه يضعف لديه ما كان يجد عند النبي ﷺ ، وهنا شاركه الصديق شعوره وأحاسيسه، فقال: فوالله إنا لنلقى مثل هذا.

يعنى : لست أنت وحدك الذى تجد فى نفسك هذا الشعور، وتلك الأحاسيس وإنما أنا وغيرى نشعر بما تشعر به، ونحس بما تحس به، وحينئذ لم يعد أمامهم من يستفتونه، ويرشدهم فى حالهم هذه غير رسول الله ﷺ ، فانطلقا إليه حتى دخلا عليه وهنا شكى حنظلة حاله للنبي ﷺ ، والصديق واقف متغير منصت ينطلق لسانه حاله بمشاركة حنظلة فى كل ما يقول .

وحين انتهى حنظلة من عرض شكواه ، تلك التى يشاركه فيها الصديق وآخرون كثيرون، أفهمه النبي ﷺ أنه لو بقى ومن على شاكلته على الحال التى يكونون عليها عنده، وفى ساعات الذكر لفرحت بهم الملائكة، أعظم الفرح، ولترجمت هذا الفرح بالتسليم عليهم، والمصافحة لهم، وهم على فرشهم، وفى خادع النوم، بل وهم فى الشوارع والطرق، ولكن ذلك يقتضى الانقطاع عن معالجة الحياة الدنيا بما فيها من النساء والبنين، والقناطر المقتطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحراث، والانقطاع بدوره يؤدي إلى تعطيل دولاب الحياة، وإهدار الإنسان لدوره ورسالته التى خلقه الله لها فى هذه الأرض حيث يقول سبحانه : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا... ﴾ [هود: ٦١]، ويقول: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ... ﴾ [فاطر: ٣٩].

ولابد إذن من الاعتدال والتوسط فى الأمر، فلا نقطع للذكر، والتفكير، وتضيع دنيانا، ولا نشغل بالدنيا مضيعين للذكر والتفكير، وإنما نسلك سبيلاً وسطاً، فساعة

للذكر والتفكير، وأخرى للدنيا بما فيها من الأهل والأولاد، والحرف، ومعاناة الحياة، شريطة أن تكون هذه الساعة الأخيرة بما لا يتعارض مع مبادئ الشرع الخفيف، قائلاً : «والذى نفسى بيده، لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»، مؤكداً ما قال وما أشار به بتكراره ثلاث مرات، وهكذا لم يخرج ﷺ فيما أشار عليهم، وأفتاهم به عن النهج الذى رسمه له ربه فى قوله : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ... ﴾ [القصص : ٧٧] .

والذى نطق هو ﷺ به صراحة فى قوله : « إن لكل شىء شرة، ولكل شرة فترة، فإن كان صاحبها سدد وقارب فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه » (١) .

وفى رواية ثانية : « فإن لكل عابد شرة ، ولكل شرة فترة ، فإما إلى سنة ، وإما إلى بدعة ، فمن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى ، ومن كانت فترته إلى غير ذلك ، فقد هلك » (٢) .

وفى رواية ثالثة : أنه ذكر لرسول الله ﷺ رجال ينصبون فى العبادة من أصحابه نصيباً شديداً، فقال رسول الله ﷺ : « تلك ضراوة (٣) الإسلام وشرته (٤) ولك ضراوة

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة ٥٤٨/٤ رقم ٢٤٥٣ عن يوسف بن سليمان أبو عمر البصرى، عن حاتم بن إسماعيل عن ابن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعاً به، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه »، وقد روى عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال : « بحسب امرئ من الشر أن يشار إليه بالأصابع فى دين أو دنيا إلا من عصمه الله » .

(٢) الحديث جزء من حديث أخرجه أحمد فى : المسند ١٥٨/٢ من حديث عبد الله بن عمرو قال : زوجنى أبى امرأة من قريش، فلما دخلت على جعلت لا أنحاش لها مما بى من القوة على العبادة من الصوم، والصلاة، فجاء عمرو بن العاص إلى كته فدخل عليها، فقال لها : كيف بعلك ؟ فقالت : خير الرجال أو كخير البعولة من رجل، لم يفتش لنا كنفاً، ولم يعرف لنا فراشاً، فأقبل على فعذمتى، وعضنى بلسانه، فقال : أنكحتك امرأة من قريش ذات حسب فعضلتها، وفعلت وفعلت، ثم انطلق إلى النبى ﷺ فشكاني ، فأرسل إلى النبى ﷺ بفأتيته، فقال : « أتصوم النهار ؟ » قلت : نعم، قال : « وتقوم الليل ؟ » قلت : نعم، قال : « لكنى أصوم وأفطر، وأمس النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى ... » الحديث .

(٣) ضراوة الإسلام : عادةً ولهجاً به لا يصبر عنه، أخذاً من قولهم ضرى بالشىء، بفتح الضاد، والراء المخففة المكسورة : ضرى، وضراوة إذا اعتاده، ولزمه، وأولع به، كما يضرى السبع بالصيد وهو من باب: تعب، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ١٨/٣ .

(٤) شرّة الإسلام : نشاطه والرغبة فيه، وهى بكسر الشين المعجمة، وتشديد الراء المفتوحة، انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢١٢/٢ .

شرة، ولكل شرة فترة^(١)، فمن كانت فترته إلى الكتاب والسنة فلام^(٢) ما هو، ومن من كانت فترته إلى معاصي الله، فذلك هو الهالك^(٣).

الأحاديث الأخرى الواردة في معنى الحديث غير ما تقدم :

هذه وقد حفلت دواوين الحديث المشهورة ببعض الأحاديث الأخرى الواردة في معنى الحديث غير ما سبق في المعنى الإجمالي، ومنها :

حديث أنس رضي الله عنه قال : قال أصحاب رسول الله ﷺ : إنا إذا كنا عند النبي ﷺ رأينا في أنفسنا ما نحب، فإذا رجعنا إلى أهلنا وخالطناهم، أنكرنا نفوسنا، فذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فقال : « لو تدمون على ما تكونون عندي في الخلاء لصافحتكم الملائكة بأجنحتها، ولكن ساعة، وساعة »^(٤).

وفي رواية : « لصافحتكم الملائكة حتى تظلكم بأجنحتها عياناً »^(٥).

وحديث أنس أيضاً : « قال : غدا أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله : هلكننا ورب الكعبة، قال : « وما ذاك ؟ »، قالوا : النفاق، النفاق، قال : « أستم تشهدون ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ؟ »، قالوا : بلى، قال : « ليس ذاك النفاق »، قال : ثم عادوا الثانية، فقالوا : يا رسول الله :

(١) الفترة تطلق على معنيين : ما بين الرسولين من رسل الله من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة، وأيضاً : الضعف والانكسار، أو اللين بعد الشدة، والسكون بعد الحدة، والأول هو المراد هنا بدلالة السياق، انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/١٨٢ .

(٢) لأم ما هو : بكسر اللام، وفتح الهمزة، وتشديد الميم المكسورة سنية : أي : قصد الطريق المسقيم، يقال : أمه يؤمه أمأً، وتأممه، وتيممه، قصده، ويحتمل أن يكون الأم أقيم مقام المأموم أي : هو على طريق ينبغي أن يقصد، انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/٤٣ .

(٣) الحديث أخرجه أحمد في : المسند ٢/١٦٥، من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقب عليه الساعاني في : بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني ١٩/١٢ بقوله : « الحديث سنده صحيح، وأورده الهيثمي، وقال : رواه الطبراني في : الكبير بنحوه، ورجال أحمد ثقات، وقد قال ابن إسحاق : حدثني أبو الزبير، فذهب التذليل، ومعنى ذلك أن ابن إسحاق روى هذا الحديث مرتين، فقال : في إحداهما حدثني أبو الزبير - وهي الرواية الصحيحة التي أثبتناها في : المتن، وقال في الثانية : عن أبي الزبير لم يصرح بالتحديث في هذه المرة، وهي التي أثبتنا سندها في الشرح، وابن إسحاق ثقة مدلس، فإذا عنعن لا يحتج بحديثه، وإذا صرح بالتحديث فحديثه يحتج به، والله أعلم » .

(٤) الحديث أورده الهيثمي في : مجمع الزوائد : كتاب الزهد : باب : ساعة وساعة ١٠/٣٠٨، وعزاه إلى البزار قائلًا : « رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير زهير بن محمد الرازي، وهو ثقة » .

(٥) الحديث أخرجه أبو يعلى في : المسند ٥/٣٠٣٥، وأورده الهيثمي في : مجمع الزوائد : كتاب الزهد : باب : ساعة، وساعة ١٠/٣٠٨، وعزاه إلى أبي يعلى بلفظه، والبزار بغير الزيادة الأخيرة التي عند أبي يعلى .

هلكتنا وربك الكعبة، قال : « وما ذاك ؟ » ، قالوا : النفاق، النفاق، قال : « أستم تشهدون أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ؟ » ، قالوا : بلى ، قال : « ليس ذاك النفاق » ، ثم عادوا الثالثة، فقالوا : يا رسول الله : هلكتنا ورب الكعبة، قال : « وما ذاك ؟ » ، قالوا : النفاق، قال : « أستم تشهدون ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله ؟ » ، قالوا : بلى ، قال : « ليس ذاك النفاق » ، قالوا : إنا إذا كنا عندك كنا على حال، وإذا خرجنا من عندك، همتنا الدنيا وأهلونا، قال : « لو أنكم إذا خرجتم من عندي تكونون على الحال التي تكونون عليه لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة » (١) .

وحتى تتضح معالم الحديث بصورة أجلى وأظهر، فإننا سنعرض له من هذه الجوانب :

الجانب الأول : ماهية العبادة ومضمونها، وأقسامها، وفضلها :

تُطلق العبادة لغة على معانٍ أهمها :

١ - التذلل والخضوع، نقول : طريق معبد إذا كان مذلاً قد وطئته الأقدام .

٢ - الطاعة، نقول : عبَدَ الله عبادةً : أطاعه (٢) .

ولا تعارض بين المعنيين : إذ الطاعة الحقّة منشؤها التذلل والخضوع، كما أن صدق التذلل والخضوع يقود إلى كمال الطاعة .

وقد فرّق الشيخ أحمد بن يوسف، المعروف بالسَّمين الحلبي بين العبودية والعبادة بقوله : « والعبودية : إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها ؛ لأنها غاية التذلل، ولا تليق إلا بمن له غاية الإفضال كالبارئ تعالى » (٣) .

شريعاً : أما العبادة في لسان الشرع فهي - كما عرفها ابن تيمية : « اسم جامع لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة » (٤) .

(١) الحديث أخرجه أبو يعلى في : المستدرك ٥٨/٦ رقم ٣٣٠٤، وأورده الهيثمي في : مجمع الزوائد : كتاب الزهد : باب : علامة البراءة من النفاق ٣١٠/١٠، وعزاه إلى أبي يعلى قائلًا : « رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير غسان بن بزير، وهو ثقة » .

(٢) انظر : القاموس المحيط ٥٩٦/١ مادة (عبَد) بتصرف ، الصحاح في اللغة والعلوم لنديم وأسامة المرعشليين ص ٧٠٠، والمعجم الوسيط ٥٧٩/٢، ٥٨٠ .

(٣) انظر : عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ٢٧/٣ .

(٤) انظر : العبادة في الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، ص ٣١، نقلاً عن رسالة العبودية لابن تيمية.

ومضمون ومحتوى العبادة : شعب الإيمان البضع وستون أو البضع والسبعون التي جاء بها حديث أبي هريرة مرفوعاً : « الإيمان بضع وستون شعبة، والحياة شعبة من الإيمان » (١) .

وفى رواية : « الإيمان بضع وسبعون : أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان » (٢) .

وقد عدد ابن تيمية طرقاً منها فقال : « فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج عبادة، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهد عبادة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمتافقين عبادة، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والخادم، والرحمة بالضعيف، والرفق بالحيوان عبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والرضا بقضائه والتوكل عليه، والرجاء في رحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك كله عبادة، بل الدين كله داخل في معنى العبادة، إذ الدين يتضمن معنى الخضوع، والذل، يقال: أدنته فدان أى : أدلته فذل، ويقال: يدين الله، ويدين لله، أى : يعبد الله ويطيعه، ويخضع له، فدين الله عبادته، وطاعته، والخضوع له، والعبادة : أصل معناها : الذل أيضاً، يقال : طريق معبد، إذا كان مذللاً قد وطأته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها، تتضمن معنى الذل، ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : أمور الإيمان بهذا اللفظ على سبيل الجزم ٩/١ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها ٦٣/١ رقم (٥٧) بلفظ : « الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياة شعبة من الإيمان » ، ورقم (٥٨) بلفظ : « الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول : لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياة شعبة من الإيمان » ، وأبو داود فى : السنن : كتاب السنة : باب : فى رد الإرجاء ٥٥/٥ ، رقم ٤٦٧٦ بهذا اللفظ، ولكن بإبدال « الأذى » بـ « العظم » ، والترمذى فى : السنن : كتاب الإيمان : باب : ما جاء فى استكمال الإيمان وزيادته ونقصه ١٢/٥ رقم ٢٦١٤ بلفظ : « الإيمان بضع وسبعون باباً أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول : لا إله إلا الله » ، وعصّب عليه بقوله : هذا حديث حسن صحيح» وهكذا روى سهيل بن أبى صالح عن عبد الله بن دينار، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، وروى عمارة بن غزيرة هذا الحديث، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال : «الإيمان أربعة وستون باباً، قال : حدثنا بذلك قتيبة عن بكر بن مضر، عن عمارة بن غزيرة به»، والنسائي فى : السنن : كتاب الإيمان : باب : ذكر شعب الإيمان ٨/١١٠ ، كرواية مسلم الأولى، وكرواية أبى داود [المجتبى]، ٥٣٢/٦ ، رقم ١١٧٣٥ ، [السنن الكبرى] ، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب : فى الإيمان ٢٢/١ رقم ٥٧ كرواية مسلم الثانية، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعاً .

الذل لله، بغاية المحبة له، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ومن أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله، وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما أعظم بغير أمر الله، فتعظيمه باطل» (١).

وخير دليل على صحة هذا المضمون، وذلك المحتوى : كتاب الله - عز وجل - وسنة النبي ﷺ ، إذ في القرآن أن الهدف من خلق الإنس والجن : العبادة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات] .

وفي السنة أن حق الله على العباد : العبادة القائمة على التوحيد ونبذ الشرك، إذ يقول النبي ﷺ لمعاذ - وقد كان رديفه على دابة : « يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم، قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . . . » الحديث (٢) .

ثم يسوق الحق في كتابه وعلى لسان نبيه شعب الإيمان شعبة شعبة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على دخول هذه الشعب، وما في معناها من كل خير ، وبر ومعروف مما لا يتعارض مع الكتاب والسنة في مضمون، ومحتوى العبادة، حتى المتاع الجنسي الغليظ، إذ يقول ﷺ : « . . . وفي بضع أحدكم صدقة » ، قالوا : يا رسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم لو وضعها في حرام،

(١) انظر : العبادة في الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، ص ٣١، ٣٢، نقلاً عن رسالة العبودية لابن تيمية .

(٢) الحديث جزء حديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الجهاد : باب : اسم الفرس والحمار ٣٥/٤ وكتاب اللباس : باب : إرداف الرجل خلف الرجل ٢١٨/٧، وكتاب الاستئذان : باب : من أجاب بلييك وسعديك ٧٤/٨، وكتاب الرقاق : باب : من جاهد نفسه في طاعة الله ١٣٠/٨، ١٣١، ومسلم في : الصحيح : كتاب الإيمان : باب : الدليل على أن مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ٥٨/١، ٥٩، رقم ٤٨ - ٥١، والترمذي في : السنن : كتاب الإيمان : باب : ما جاء في افتراق هذه الأمة ٢٦/٥، ٢٧، رقم ٢٦٤٣، وابن ماجه في : السنن : كتاب الزهد : باب : ما يرجي من رحمة الله يوم القيامة ١٤٣٥/٢، ١٤٣٦، رقم ٤٢٩٦، كلهم من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً ، وعقب الترمذي على روايته بقوله : « هذا حديث حسن صحيح، وروى من غير وجه عن معاذ بن جبل » .

أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» (١).

بل حتى النفقة على الأولاد، ومداعبة الأهل، ومعالجة الحرف والصناعات، إذ يقول عليه السلام: «... ولست تُنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرتَ عليها حتى اللقمة تجعلها في فيّ امرأتك» (٢).

ويقول عليه السلام: «إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله، وارموا، واركبوا، وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا، وليس من اللهب إلا في ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته امرأته، ورميه بقوسه، ونبله، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه، فإنها نعمة كفرها، أو قال: كفر بها» (٣).

(١) الحديث جزء حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الزكاة : باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ٢/٦٩٧، ٦٩٨ رقم ١٠٠٦، وأبو داود فى : السنن : كتاب الصلاة : باب: صلاة الضحى ٢/٢٦، ٢٧، رقم ١٢٨٥، وكتاب الأدب : باب: فى إمطة الأذى عن الطريق ٤/٣٦٢ رقم ٥٢٤٣، وأحمد فى : المسند ٥/١٦٧، ١٦٨، كلهم من حديث أبى ذر رضي الله عنه مرفوعاً به، وبنحوه، واللفظ لسلم.

(٢) الحديث جزء حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الوصايا : باب: أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس ٤/٣، وكتاب مناقب الأنصار : باب: قول النبى صلى الله عليه وسلم: « اللهم امض لأصحابي هجرتهم، ٥/٨٧، ٨٨، وكتاب المغازى : باب: حجة الوداع ٥/٢٥٥، وكتاب النفقات : باب: فضل النفقة على الأهل ٧/٨٠، ٨١، وكتاب الفرائض : باب: ميراث البنات ٨/١٨٧، ١٨٨، ومسلم فى : الصحيح: كتاب الوصية: باب: الوصية بالثلث ٣/١٢٥٠، ١٢٥٣ رقم ٥ - ٧، وأبو داود فى : السنن: كتاب الوصايا: باب: ما جاء فيما لا يجوز للموصى من ماله ٣/١١٢، ١١٣ رقم ٢٨٦٤، والترمذى فى: السنن: كتاب الوصايا : باب: ما جاء فى الوصية بالثلث ٤/٤٣٠، ٤٣١، رقم ٢١١٦، وقال عقبه : «وفى الباب: عن ابن عباس، وهذا حديث حسن صحيح ...»، وأحمد فى : المسند : ١/١٧٢، ١٧٣، ١٧٦، كلهم من حديث سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه مرفوعاً به، وبنحوه، واللفظ لسلم.

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد : باب: فى الرمي ٣/٢٨، ٢٩ رقم ٢٥١٣، والترمذى فى : السنن : كتاب فضائل الجهاد : باب: ما جاء فى فضل الرمي فى سبيل الله ٣/١٤٩ رقم ١٦٣٧، وعقب عليه بقوله : « وفى الباب: عن كعب بن مرة، وعمرو بن عبسة، وعبد الله بن عمرو، وهذا حديث حسن صحيح»، والنسائى فى: السنن: كتاب الخيل: باب: تأديب الرجل فرسه ٦/٢٢٢، ٢٢٣ [المحتبى]، ٣/٣٩، ٤٠ رقم ٤٤٢٠ رقم ٢٨١١، وأحمد فى : المسند ٤/١٤٦، والحاكم فى : المستدرک : كتاب الجهاد : باب: من علم الرمي ثم تركه فهى نعمة كفرها ٢/٩٥، كلهم من حديث عقبه ابن عامر مرفوعاً به، وبنحوه، وعقب الحاكم بقوله : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وأقره على ذلك الذهبى فى : التلخيص، وساق الحاكم له شاهداً من حديث أبى هريرة مرفوعاً : « كل شيء من لهب الدنيا باطل إلا ثلاثة: انتضالك بقوسك، وتأديبك فرسك، وملاعبتك أهلك، فإنها من الحق، وقال: انتضلوا واركبوا، وأن تتضلوا أحب إليّ، إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعه يحسب فيه الخير، والمتبلل، والرامي به»، وقال: « صحيح على شرط مسلم»، ولم يوافقه الذهبى على ذلك، إذ قال فى : التلخيص : « قلت : كذا قال : وسويد - يقصد ابن عبد العزيز - أحد رجال الإسناد - متروك ».

إلى غير ذلك مما أثار عنه ﷺ في كل شؤون الحياة الدنيا والآخرة، وعلى هذا الفهم مضى سلوك المسلمين من عصر الصحابة إلى عصور الضعف، والانحلال، والانحطاط.

وغاية ما في الأمر أن العبادة تنقسم إلى قسمين :

الأول : عبادة مخصوصة أو مقيدة، حددها الشارع وبينها، فليس لنا أن نزيد فيها، أو ننقص منها، وهى التى لا تصح العبودية إلا بها مثل العقائد، والصلوات، والزكوات، والصيام، والحج، ونحوها، وهذا النوع من العبادة لا يُقبل إلا إذا تحقق فيه شرطان : الإخلاص لله، واتباع السنة، حيث يقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝۱۱۰ ﴾ [الكهف] .

ويقول ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه » (١) .

ويقول ﷺ أيضًا : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » (٢) .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : باب : كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ : ١/١ ، وكتاب العتق : باب : الخطأ والنسيان فى العتاقة، والطلاق، ونحوه ١٩١/٣ ، وكتاب مناقب الأنصار : باب : هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٧٢/٥ ، وكتاب النكاح : باب : من هاجر أو عمل خيراً لتزويج امرأة فله ما نوى ٤/٧ وكتاب الطلاق : باب : الطلاق فى الإغلاق والكراه [الترجمة] ٥٨/٧ ، وكتاب الأيمان : باب : النية فى الأيمان ١٧٥/٨ ، وكتاب الإكراه [الترجمة] ٢٥/٩ وكتاب الحيل : باب : فى ترك الحيل ٢٩/٩ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب : قوله ﷺ : «إنما الأعمال بالنية» ١٥٧/٢ ، ١٥٨ ، وأبو داود فى : السنن : كتاب الطلاق : باب : فيما عنى به الطلاق والديات ٥١٠/٢ ، والترمذى فى : السنن : كتاب فضائل الجهاد : باب : ما جاء فىمن يقاتل رياء وللدنيا ١٧٩/٤ ، ١٨٠ ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، والنسائى فى : السنن : كتاب الطهارة : باب : النية فى الوضوء ٥١/١ ، وكتاب الطلاق : باب : الكلام إذا قصد به النية فى اليمين ١٢/٧ ، ١٣ ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب : النية ١٤١٣/٢ رقم ٤٢٢٧ ، وأحمد فى : المسند : ٢٥/١ ، ٤٣ كلهم من حديث عمر بن الخطاب ؓ مرفوعاً، واللفظ للبخارى .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصلح : باب : إذا اصطلحو على صلح جور، فالصلح مردود ٢٤١/٣ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الأفضية : باب : نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور ١٣٤٤ ، ١٣٤٣/٣ ، رقم ١٧١٨ (١٧ ، ١٨) ، وأبو داود فى : السنن : كتاب السنة : باب : فى لزوم السنة ١٢/٥ رقم ٤٦٠٦ ، وابن ماجه فى : السنن : المقدمة : باب : تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه ٧/١ رقم ١٤ ، وأحمد فى : المسند ٢٧٠/٦ كلهم من حديث عائشة مرفوعاً به، وزاد مسلم فى روايته الثانية أن سعد بن إبراهيم قال : سألت القاسم بن محمد : عن رجل له ثلاثة مساكن فأوصى بثلت كل مسكن منها، قال : يجمع ذلك كله فى مسكن واحد، ثم قال : أخبرتنى عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

الثانى : عبادة عامة مطلقة، لم يتدخل الشارع فيها إلا بوضع شروط وضوابط لها، وهى التى لا تسود الأمة، ولا تقر إلا بها من الاشتغال بالعلوم التجريبية، والحرف، والصناعات، ونحوها، وهذه الضوابط، وتلك الشروط : أن يقصد بها وجه الله ومرضاته، وألا تتعارض مع كتاب الله وسنة رسوله نصاً أو استنباطاً، وأن يكون من ورائها منفعة أو مصلحة تعود على الفرد والجماعة (١) .

والذين فهموا العبادة بهذا المفهوم الواسع العميق يختلفون فى أفضلها على طوائف :

الطائفة الأولى : ترى أن أفضل العبادة ما كان شاقاً وصعباً على النفوس قائلة : إن هذا دليلاً على أن المرء قد تمكن من رياضة نفسه بحيث خالف هواها وحملها على الشاق الصعب الذى تكره، والأجر على قدر المشقة والتعب .

الطائفة الثانية : ترى أن أفضل العبادة : التجرد والزهد فى الدنيا، والتقلل منها قدر الإمكان على اعتبار أنها إلى زوال، والعامل من تقلل منها قانعاً بالكفاف، وهذه الطائفة ما بين ملتزم بذلك جامع لهما عليه، مفرغ القلب من كل ما سوى الله والدار الآخرة، وما بين عامل به، داع الناس إليه .

الطائفة الثالثة : ترى أن أفضل العبادة : ما كان متعدياً إلى الغير من إعانة هذا الغير بالنفس والمال، وبذل النصيحة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مستندة إلى قوله ﷺ « لعلى يوم خير : » فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْرِ النعم « (٢) ، وقوله ﷺ : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » (٣) ، وقوله ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من تبعه لا

(١) انظر : العبادة فى الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوى، ص ٣٢، نقلاً عن رسالة العبودية لابن تيمية بتصرف كثير .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجهاد : باب : دعاء النبى ﷺ إلى الإسلام والنبوة ٥٧/٤، ٥٨، ومسلم فى : الصحيح : كتاب فضائل الصحابة ، باب : من فضائل على بن أبى طالب ؓ ١٨٧١/٤ - ١٨٧٣ رقم ٣٣ - ٣٥ ، والترمذى فى : السنن : كتاب المناقب : باب : مناقب على بن أبى طالب ٦٣٨/٥ رقم ٣٧٢٤ كلهم من حديث سهل مرفوعاً بنحوه، وبمثل .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب : فضل إعانة الغازى فى سبيل الله بمركوب وغيره ١٥٠٦/٣ رقم ١٣٣ (١٨٩٣)، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب : فى الدال على الخير ٣٣٣/٤ رقم ٥١٣٩، والترمذى فى : السنن : كتاب العلم، باب : ما جاء فى الدال على الخير كفاعله ٤١/٤، ٤٢ رقم ٢٦٧١ كلهم من حديث أبى مسعود البدرى ؓ مرفوعاً، وقال الترمذى عقب حديثه : « هذا حديث حسن صحيح » ، وللحديث روايات أخرى مقرونة بسبب ورود عند مسلم .

ينقص ذلك من أجورهم شيئاً» ^(١) ، وأن ذلك الخير يستمر حتى إلى ما بعد الموت لحديث : « إذا مات ابن الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ^(٢) .

الطائفة الرابعة : ترى أن أفضل العبادة : الحرص على مرضاة الله فى كل وقت ، وفى كل مكان بما يناسب هذا الوقت ، وذلك المكان ، فإذا دخل العدو بلاد المسلمين ، وسفك الدماء ، وسلب الأموال ، وانتهك الأعراض ، وداس الحرمات والمقدسات ، فعبادة الوقت الجهاد ، وإن ترتب على ذلك ضياع صلاة ليل ، وصيام نهار تطوعاً ، وإذا حضرت الصلاة والحال حال أمن وسلام ، فعبادة الوقت إجابة النداء وأداء الصلاة .

وإذا جاء ضيف فعبادة الوقت إكرامه والحفاوة به وهلم جرا ، ورأى هذه الطائفة الأخيرة هو الراجح وهو الأولى بالقبول ، إذ هو الموافق لهديه ﷺ حيث كان يعطى كل وقت وكل ظرف المناسب من العبادة .

يقول ابن القيم بعد سرده لآراء هذه الطوائف جميعاً وأدلة كل فى الموازنة بين رأى الطائفة الرابعة ، وآراء الطوائف الثلاث قبل : [وهؤلاء هم أهل التبعيد المطلق ، والأصناف قبلهم أهل التبعيد المقيد ، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذى تعلق به من العبادة وفارقه ، يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته ، فهو يعبد الله على وجه واحد ، وصاحب التبعيد المطلق ، ليس له غرض فى تبعيد بعينه يؤثره على غيره ، بل لا يزال متنقلاً فى منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة ، عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى ، فهذا دأبه فى السير حتى ينتهى سيره ، فإذا رأيت العلماء رأيتهم معهم ، وإن رأيت العباد رأيتهم معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيتهم معهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيتهم معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيتهم معهم ، فهذا هو العبد المطلق ، الذى لم تملكه الرسوم ، ولم تقيدته القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه ، وما فيه

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة : باب : إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة ١٢٧/٩ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب العلم : باب : من سن سنة حسنة أو سيئة ٢٠٦٠/٤ رقم ١٦ (٢٦٧٤) ، وأبو داود فى : السنن : كتاب السنة : باب : لزوم السنة ٢٠١/٤ رقم ٤٦٠٩ كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعاً به وبنيه .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الوصية : باب : ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٢٥٥/٣ ، وأبو داود فى : السنن : كتاب الوصايا : باب : ما جاء فى الصدقة عن الميت ٣٠٠/٣ رقم ٢٨٨٠ ، والترمذى فى : السنن : كتاب الأحكام : باب : فى الوقف ٦٦٠/٣ رقم ١٣٧٦ ، والنسائى فى : السنن : كتاب الوصايا : باب : فضل الصدقة عن الميت ٢٥١/٦ [المجتبى] ١٠٩/٤ رقم ٦٤٧٨ [الكبرى] .

لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها فى سواه، فهذا هو المتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥)، حقًا، القائم بهما صدقًا، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به فى كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولى عليه رسم، حرٌّ مجرد، دائرٌ مع الأمر حيث دار، يدين بدين الأمر أنى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكتها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وباللله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه، عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها، فواهاً له ! ما أغربه بين الناس ! وما أشد وحشته منهم ! وما أعظم أنسه باللله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه ! واللله المستعان، وعليه التكلان [(١)] .

الجانب الثانى : علاقة حديث حنظلة : « ساعة وساعة » بفقهِ العبادَة :

وواضح مما تقدم حول فقه العبادَة أن حديث حنظلة صورة دقيقة للعبادة بشقيها، أو بقسميها : إذ فيه العبادَة المخصوصة المقيدة المتمثلة فى الذكر، والفكر، والمراقبة، والتي عبّر عنها حنظلة بقوله : « نكون عند رسول الله ﷺ يذكروننا بالنار والجنة حتى كأننا رأى عين »، والتي دعا إليها رب العزة - سبحانه - بقوله : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرِبِّكُمْ فَأَمَّا رَبَّنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) ﴾ [آل عمران]، وقوله : ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء : ١]، وقوله : ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

ودعا إليها النبى ﷺ بقوله حكاية عن يحيى بن زكريا - عليهما السلام - إن الله أمر يحيى بن زكريا ﷺ بخمس كلمات : أن يعمل بها، ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا

(١) انظر : تهذيب مدارج السالكين ١/١٠٤، ١٠٥ .

بها، وأنه كاد أن يبطئ بها . . . الحديث، وفيه : « وأمركم أن تذكروا الله، وإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً، حتى إذا أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله » (١) .

وقوله ﷺ : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجلٌ قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجلٌ طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله، ورجلٌ تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » (٢) .

(١) الحديث أخرجه أحمد في : المسند ٢/٢٠٢، والترمذي في : السنن : كتاب الامثال : باب : ما جاء في مثل الصلاة والصيام، والصدقة ١٤٨/٥، ١٤٩ رقم ٢٨٦٣ كلاهما من حديث الحارث الأشعري مرفوعاً، ولفظه : « إن الله - تبارك وتعالى - أمرني بخمس كلمات أن أعملهن، وأمركم أن تعملوا بهن : أولهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن مثل من أشرك بالله، كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال له : هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأد إلى فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأياكم يرضى أن يكون عبده كذلك، وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة، ومعه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال : أنا أفديتكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم . . . » الحديث، وعقب الترمذي على حديثه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح غريب » .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الأذان : باب : من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضائل المساجد ١/١٦٨، وكتاب الزكاة : باب : الصدقة باليمين ٢/١٣٨، وكتاب الرقاق : باب : البكاء من خشية الله ٨/١٢٥، ١٢٦، وكتاب الحدود : باب : فضل من ترك الفواحش ٨/٢٠٣ من حديث أبي هريرة مرفوعاً بهذا اللفظ في الروایتين : الأولى والثانية، ومقتصراً على صنف البكائين في الرواية الثالثة وتقديم بعض هذه الأصناف على بعض في الرواية الأخيرة، ومسلم في : الصحيح : كتاب الزكاة : باب : فضل إخفاء الصدقة ٢/٧٥١، ٧١٦ رقم ٩١ من حديث أبي هريرة على القطع مع تقديم اليمين على الشمال في التخفي بالصدقة، ومن حديث أبي سعيد، وأبي هريرة على الشك، والترمذي في : السنن : كتاب الزهد : باب : ما جاء في الحب في الله ٤/٥٩٨، ٥٩٩ رقم ٢٣٩١، من حديث أبي هريرة، أو أبي سعيد، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن صحيح، وهكذا روى هذا الحديث عن مالك بن أنس من غير وجه مثل هذا، وشك فيه، وقال : عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد، وعبيد الله بن عمر، رواه عن حبيب بن عبد الرحمن، ولم يشك فيه يقول : « عن أبي هريرة »، والنسائي في : السنن : كتاب آداب القضاة : باب : الإمام العادل ٨/٢٢٢، ٢٢٣ من حديث أبي سعيد، أو أبي هريرة بمثل رواية البخاري الأخيرة، وأحمد في : المسند ٢/٤٣٩ من حديث أبي هريرة، مع تقديم صف : الذي ذكر الله خالياً ففاضت عيناه على الذي تصدق بصدقة فأخفاها .

وقوله ﷺ: « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر : مثل الحى والميت » (١) .

وفيه كذلك العبادة العامة المطلقة المتمثلة فى ملاعبة الأهل والولد، ومعالجة شؤون المعاش من زراعة، وصناعة، وتجارة، ونحوها، والتى خاف منها حنظلة أن تكون طريقاً للنفاق فجاء يشكو حاله إلى النبى ﷺ، ولكن النبى ﷺ أفهمه أنها من العبادة بقوله: «ولكن ساعة وساعة» .

وجاءت عنه ﷺ أحاديث أخرى سبقت فى تعريف العبادة تؤكد ذلك، وأفضل العبادة من هذين القسمين اللذين جاء بهما الحديث : الحرص على مرضاة الله فى كل وقت وفى كل مكان بما يناسب هذا الوقت، وذلك المكان، فساعة الوعظ والتذكير فى حينها ومكانها أفضل من ملاعبة الزوجة والأولاد والاشتغال بشؤون المعاش، وساعة ملاعبة الزوجة والأولاد، والاشتغال بشؤون المعاش فى حينها ومكانها أفضل من الجلوس فى مجالس الوعظ والتذكير، وهكذا .

مع دوام التفكير فى آلاء الله فى النفس وفى الكون، ومراقبته فى كل هذه الساعات، بحيث يرى النعمة والمنعم معاً فى سائر الأحيان، وفى كل الأحوال .

الجانب الثالث : حديث حنظلة : « ساعة وساعة » وفقه غير سديد :

وقد فقه نفر من الناس من جوابه ﷺ لحنظلة بقوله : « ساعة وساعة »، أنه دعوة

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الدعوات : باب : فضل ذكر الله - عز وجل - ١٠٧/٨ من حديث أبى موسى الأشعري مرفوعاً بهذا اللفظ، وعقب ابن حجر فى فتح البارى ٢١٠/١١ على هذه الرواية بقوله : «سقط لفظ [ربه] الثانية من غير رواية أبى ذر هكذا وقع فى جميع نسخ البخارى»، ومسلم فى : الصحيح : كتاب صلاة المسافرين وقصرها : باب : استحباب : صلاة النافلة فى بيته، وجوازها فى المسجد ٥٣٩/١ رقم ٧٧٩ (٢١١) عن عبد الله بن براء الأشعري، ومحمد بن العلاء ، كلاهما عن أبى أسامة، عن بريد، عن أبى بردة، عن أبى موسى مرفوعاً بلفظ : « مثل البيت الذى يذكر الله فيه، والبيت الذى لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت »، زاد ابن حجر فى : (الفتح ٢١٠/١١) فقال : «وكذا أخرجه الإسماعيلي، وابن حبان فى صحيحه جميعاً عن أبى يعلى، عن أبى كريب، وكذا أخرجه أبو عوانة عن أحمد بن عبد الحميد، والإسماعيلي أيضاً عن الحسن بن سفيان، عن عبد الله بن براء، وعن القاسم بن زكريا عن يوسف بن موسى، وإبراهيم بن سعيد الجوهري، وموسى بن عبد الرحمن المسروقي، والقاسم بن دينار، كلهم عن أبى أسامة، فتوارد هؤلاء على هذا اللفظ يدل على أنه هو الذى حدث به بريد بن عبد الملك شيخ أبى أسامة، وانفرد البخارى باللفظ المذكور دون بقية أصحاب أبى كريب، وأصحاب أبى أسامة يشعر بأنه رواه من حفظه أو تحجور فى روايته بالمعنى الذى وقع له، وهو أن الذى يوصف بالحياة والموت حقيقة هو الساكن لا السكن، وأن إطلاق الحى والميت فى وصف البيت إنما يراد به ساكن البيت، فشبه الذاكر بالحى، الذى ظاهره متزين بنور الحياة وباطنه بنور المعرفة، وشبه غير الذاكر بالبيت الذى ظاهره عاطل، وباطنه باطل» .

من النبي ﷺ إلى إطلاق العنان للنفس أن تأخذ حظها من الشهوات كما تشاء من غير قيود أو ضوابط، مُفسِّرين قوله ﷺ لحظلة : « ساعة وساعة »، بأن المراد : ساعة لقلبك أو ساعة لنفسك وساعة لربك، فالمرء في الساعة الأولى - وهي ساعة القلب، أو النفس - حر في سلوكياته وتصرفاته دون التزام بقيود أو ضوابط، أما في الساعة الثانية - وهي ساعة الرب - فإنه ليس حراً في تصرفاته، وسلوكياته، بل لابد من الالتزام بالقيود، والضوابط الشرعية .

والحقيقة أن هذا الفقه غير سديد لأمر، منها :

١ - أن النبي ﷺ مُرسل من قبل ربه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهدايتهم إلى صراط العزيز الحميد، كما قال سبحانه: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [المائدة] ، ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣) ﴾ [الشورى] .

ولا يُعقل أن تكون هذه هي فحوى رسالته ثم يدعو الناس إلى ما يناقضها أو يعارضها من جعل الحياة قسمين : قسماً لله، وقسماً للنفس والشيطان .

٢ - وأنه قد جاءت عنه ﷺ الأخبار بالدعوة إلى الاهتمام بحق الأهل والأولاد، والاشتغال بشؤون المعاش من زراعة، وصناعة، وتجارة، ونحوها مع الترتيب والنظام : إذ جاء عنه قوله ﷺ : « كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده، وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده، وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته» (١) .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجمعة : باب : الجمعة فى القرى والمدن ٦/٢ ، وكتاب الجنائز : باب : قول النبي ﷺ : « يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته » ١٠٠ / ٢ معلقاً، وكتاب الاستقراض : باب : العبد راع فى مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه ١٥٧ / ٣ ، ١٥٨ ، وكتاب العتق : باب : كراهية التناول على الرقيق، وباب : العبد راع فى مال سيده ١٩٦ / ٣ ، ١٩٧ ، وكتاب الوصايا : باب : تأويل قول الله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ ﴾ [النساء : ١١] ٦ / ٤ ، وكتاب النكاح : باب : ﴿ فَوَأْتِمْكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم : ٦] ، وباب : المرأة راعية فى بيت زوجها ٣٤ / ٧ ، ٤١ ، =

وقوله عليه السلام: « أفضل دينار ينفقه الرجل : دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله » (١) .

وقوله عليه السلام: « إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحسبها فهي له صدقة » (٢) .

وقوله عليه السلام: « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرتَ بها حتى ما تجعل في امرأتك » (٣) .

= وكتاب الأحكام: باب: قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء : ٥٩]
٧٧/٩، ومسلم في: الصحيح: كتاب الإمارة: باب: فضيلة الإمام العادل ١٤٥٩/٣، ١٤٦٠ رقم ٢٠، وأبو داود في: السنن: كتاب الحجاج، والإمارة، والنفق: باب: ما يلزم الإمام من حق الرعية ٣/٣٤٢، ٣٤٣، رقم ١٧٠٥، وأحمد في: المسند ٥/٢، ٥٤، ٥٥، ١٠٨، ١١١، ١٢١ كلهم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً، وعقب الترمذى على حديثه بقوله: « وحديث ابن عمر حديث حسن صحيح » .

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الزكاة: باب: فضل النفقة على العيال والمملوك، وإثم من ضيعهم، أو حبس نفقتهم عنهم ٢/٦٩١، ٦٩٢ رقم ٩٩٤ (٣٨) من حديث أبي قلابة عن أبي أسماء، عن ثوبان مرفوعاً بهذا اللفظ، وفي آخره: « قال أبو قلابة: وبدأ بالعيال »، ثم قال أبو قلابة: « وأى رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار، يعفهم، أو ينفقهم الله به، ويعنيهم »، والترمذى في: السنن: كتاب البر والصلة ٤/٣٠٤ رقم ١٩٦٦ من حديث أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان مرفوعاً بمثل لفظ مسلم وعقب عليه بقوله: « هذا حديث حسن صحيح »، وابن ماجه في: السنن: كتاب الجهاد: باب: فضل النفقة في سبيل الله تعالى ٢/٩٢٢ رقم ٢٧٦٠ من حديث أبي قلابة عن أبي أسماء، عن ثوبان مرفوعاً بمثل حديث مسلم، وأحمد في: المسند ٥/٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٤، من حديث أبي قلابة عن أسماء، عن ثوبان مرفوعاً بمثله وبنحوه .

(٢) الحديث أخرجه البخارى في: الصحيح: كتاب الإيمان: باب: ما جاء إن الأعمال بالنية، والخسبة، ولكل امرئ ما نوى ١/٢١، ٢٢ عن حجاج بن منهال، وكتاب المغازى: باب: منه ٥/١٠٧ عن مسلم ابن إبراهيم، وكتاب النفقات: باب: فضل النفقة على الأهل ٧/٨٠ . . . عن آدم بن أبي إياس، ومسلم في: الصحيح: كتاب الزكاة: باب: فضل النفقة، والصدقة على الأقربين، والزوج، والأولاد . . .
٢/٦٩٥ رقم ١٠٠٢ (٤٨) عن عبد الله بن معاذ، عن أبيه، وعن أبي بكر بن نافع، ومحمد بن بشار (بندار) كلاهما عن محمد بن جعفر (غندر)، وعن أبي كريب عن وكيع، والترمذى في: السنن: كتاب البر والصلة: باب: ما جاء في النفقة على الأهل ٤/٣٠٣ رقم ١٩٦٥ عن أحمد بن محمد، عن ابن المبارك، والنسائي في: السنن: كتاب الزكاة: باب: أى الصدقة أفضل ٥/٦٩ [المجتبى] ٢/٣٦ رقم ٢٣٢٥ (٤) [الكبرى] عن ابن بشار، عن غندر، وكتاب عشرة النساء: باب: ثواب النفقة على الذرية ٥/٣٨٢، ٣٨٣ رقم ٩٢٠٥ (٢) عن إسماعيل بن مسعود، عن بشر بن الفضل، وأحمد في: المسند ٥/٢٧٣ عن وكيع ثمانيتهم، أعنى: [حجاج بن منهال، ومسلم بن إبراهيم، وآدم بن أبي إياس، ومعاذ بن معاذ العنبري، ومحمد بن جعفر، ووكيع، وعبد الله بن المبارك، وبشر بن الفضل]، عن شعبة، عن عدى بن ثابت، عن عبد الله بن يزيد الأنصاري الحظمي - وله صحبه - عن أبي مسعود البدرى (عقبه بن عمرو) مرفوعاً به، وبنحوه .

(٣) سبق تخريجه، ص ١٠٩ .

وقوله ﷺ: « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » (١) .

وقوله ﷺ: « إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومُنبله، واركبوا، وأن ترموا أحب إليَّ من أن تركبوا، وليس من اللهو إلا في ثلاثة : تأديب الرجل فرسه، وملاعبته امرأته، ورميه بقوسه ونبله، ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبةً عنه، فإنها نعمة كفرها، أو قال : كفر بها » (٢) .

وقوله ﷺ: « ما من مسلم يغرّس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة » (٣) .

(١) الحديث أخرجه مسلم في : الصحيح : كتاب الزكاة : باب : فضل النفقة على العيال والمملوك ... ٦٩٢/٢ رقم ٩٦٦ من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً بلفظ : « كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته »، وأبو داود في : السنن : كتاب الزكاة : باب : في صلة الرحم ٣٢١/٢ رقم ١٦٩٢ من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً بهذا اللفظ، والنسائي في : السنن [الكبرى] : كتاب عشرة النساء : باب : إثم من ضيع عيال ٣٧٤/٥ رقم ٩١٧٦ (١)، ٩١٧٧ (٢) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً بهذا اللفظ، غير أنه قال في الرواية الأولى : « يعول » بدل « يقوت »، وأحمد في : المسند ١٦٠/٢، ١٩٣، ١٩٥ من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً بهذا اللفظ .

(٢) سبق تخريجه في هذا الجزء ، ص ١٠٩ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب المزارعة : باب : فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ... ١٣٥/٣ عن قتبية، وعبد الرحمن بن المبارك، وكتاب الأدب : باب : رحمة الناس والبهائم ١٢/٨ عن أبي الوليد، ومسلم في : الصحيح : كتاب البيوع : باب : فضل الغرس والزرع ١١٨٩/٣ رقم ١٥٥٣ (١٢) عن يحيى بن يحيى، وقتبية، ومحمد بن عبيد بن حساب، والترمذي في : السنن : كتاب الأحكام : باب : ما جاء في فضل الغرس ٦٦٦/٣ رقم ١٣٨٢ عن قتبية .

وأحمد في المسند ١٤٧/٣، ٢٢٨، ٢٢٩ عن يونس، ٢٤٣ عن عفان سبعتهم، أعنى : [قتبية، وعبد الرحمن بن المبارك، وأبا الوليد، ويحيى بن يحيى، ومحمد بن عبد الله بن حساب، ويونس، وعفان] عن أبي عوانة الوضاح الشكري، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً، واللفظ لمسلم، وعقب الترمذي على حديثه بقوله : « حديث أنس حديث حسن صحيح » .

ومسلم في : الصحيح : « كتاب المزارعة (المساقاة) : باب : فضل الغرس والزرع ١١٨٩/٣ رقم ١٥٥٣ (١٣) عن عبد بن حميد، عن مسلم بن إبراهيم، عن أبان بن يزيد .

والبخاري في : الصحيح : كتاب المزارعة : باب : فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ١٣٥/٣ قائلًا : « وقال لنا مسلم : حدثنا أبان، حدثنا قتادة، حدثنا أنس مرفوعاً، ولفظ مسلم : أن نبى الله ﷺ دخل نخلاً لام مبشر امرأة من الأنصار، فقال رسول الله ﷺ : من غرس هذا النخل؟ أسلم أم كافر؟ قالوا : مسلم، بنحو حديثهم »، وأحمد في : المسند ١٩٢/٣ عن بهز، وعفان قالا : حدثنا أبان، عن قتادة، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ دخل نخلاً لام مبشر امرأة من الأنصار ... الحديث .

وفى رواية ثانية : « ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة » (١) .

وقوله ﷺ : « التاجر الصدوق الأمين، والصديقين، والشهداء » (٢) .

٣ - وأنه ﷺ جاءت عنه الأخبار الناطقة بعدم رضاه عن ضيعوا حقوق الأهل والأولاد، أو تركوا الاشتغال بالمعاش، وعاشوا عالة على غيرهم .

هذا عبد الله بن عمرو بن العاص كان يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يقضى حق أهله، فقال النبي ﷺ : « ألم أخبر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟ قلت : بلى يا رسول الله، قال : « فلا تفعل : صم، وأفطر، ونم، وقم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً، وإن بحسبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر » (٣) .

وعن أبي جحيفة رضى الله عنه قال : « أخى النبي ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مبتذلة، فقال لها : ما شأنك؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال له : كل فإنى صائم، قال : ما أنا بأكل حتى تأكل قال : فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال : نم، فنام ثم ذهب يقوم، فقال : نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن، فصلياً، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب المساقاة : باب : فضل الغرس والزرع ١١٨٨/٣ رقم ١٥٥٢ (٧ - ١١) من عدة طرق إلى جابر بن عبد الله مرفوعاً بهذا اللفظ وبنحوه، والدارمى فى : السنن : كتاب البيوع : باب : فى فضل الغرس ٢/٢٦٨، ٢٦٩ من حديث جابر بن عبد الله عن أم مبشر عن النبي ﷺ به، وأحمد فى : المسند ٦/٤٢٠ من حديث جابر عن أم مبشر مرفوعاً به .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب البيوع : باب : ما جاء فى التجار، وتسمية النبي ﷺ إياهم ٣/٥١٥ رقم ١٢٠٩، والدارمى فى : السنن : كتاب البيوع : باب : فى التاجر الصدوق ٢/٢٤٧ من حديث أبى سعيد مرفوعاً بهذا اللفظ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصوم : باب : حق الجسد فى الصوم، وباب : حق الأهل فى الصوم ٣/٥١، ٥٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الصيام : باب : النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به، أو فوت به حقاً ٢/٨١٣ - ٨١٨ رقم ١٨٢، ١٨٣، ١٩٣، والنسائى فى : السنن : كتاب الصوم : باب : صوم يوم وإفطار يوم ٤/٢١٠، ٢١١، وباب : صوم عشرة أيام من الشهر ٤/٢١٥، كلهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه واللفظ للبخارى .

عليك حقًا ، فأعط كل ذى حق حقه ، ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال النبي : « صدق سلمان » (١) .

ويقول ﷺ : « من تعلّم الرمي ، ثم تركه فليس منا » (٢) .

٤ - وأنه ﷺ كان يُحسن معاشرته أهله حتى قال : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » (٣) .

وكان لحسن عشرته ﷺ هذه صور، منها : مسابقتها لأهله ؛ إذ تقول عائشة ؓ : « خرجتُ مع رسول الله ﷺ وأنا خفيفة اللحم فنزلنا منزلاً ، فقال لأصحابه : « تقدموا » ثم قال لى : « تعال حتى أسابقك » فسابقني ، فسبقته ، ثم خرجتُ معه فى سفر آخر ، وقد حملتُ اللحم ، فنزلنا منزلاً ، فقال لأصحابه : « تقدموا » ، ثم قال لى : « تعال أسابقك » ، فسابقني ، فسبقتني ، فضرب بيده كتفى ، وقال : « هذه بتلك » (٤) .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الصوم : باب : من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع ٤٩/٣ ، ٥٠ ، وكتاب الأدب : باب : صنع الطعام ، والتكلف للضيف ٤٠/٨ ، والترمذى فى : السنن : كتاب الزهد : باب : منه ٦٠٨/٤ ، ٦٠٩ رقم ٢٤١٣ كلاهما من حديث أبى جحيفة ، عن سلمان مرفوعاً به ، وعقب الترمذى على حديثه قائلاً : « هذا حديث صحيح » .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإمارة : باب : فضل الرمى والحث عليه ١٥٢٣/٣ رقم ١٩١٩ ، وأبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد : باب : الرمى ٢٨/٤ ، ٢٩ رقم ٢٥١٣ كلاهما من حديث عقبه بن عامر مرفوعاً ، واللفظ لمسلم .

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب المناقب : باب : فضل أزواج النبي ﷺ ٦٦٦/٥ ، ٦٦٧ رقم ٣٨٩٥ من حديث هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ؓ قالت : قال رسول الله ﷺ : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي ، وإذا مات صاحبكم فدعوه » ، وعقب عليه بقوله : « هذا حديث حسن غريب صحيح من حديث الثورى ، ما أقل من رواه عن الثورى ، وروى هذا عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ مرسل » ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب النكاح : باب : حسن معاشرته النساء ٦٣٦/١ رقم ١٩٧٧ من حديث عمارة بن ثوبان ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » ، وعقب عليه البوصيرى فى : مصباح الزجاجة ١١٧/٢ ، ١١٨ بقوله : « الحديث من رواية عائشة ؓ ، رواه الترمذى فى جامعه ، وابن حبان فى صحيحه ، وأما رواية ابن عباس فإسناد ضعيف ؛ لأن عمارة بن ثوبان ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال عبد الحق : ليس بالقوى ، وقال ابن القطان : مجهول الحال » ، ورقم ١٩٧٨ من حديث عبد الله بن عمرو ؓ مرفوعاً : « خياركم خياركم لنسائهم » ، وعقب عليه البوصيرى فى : « المصباح ١١٨/٢ بقوله : « إسناده على شرط الشيخين ، والحديث رواه الترمذى من حديث أبى هريرة ، وقال : حسن » ، والدارمى فى : السنن : كتاب النكاح : باب : فى حسن معاشرته النساء ١٥٩/٢ بإسناد ولفظ الترمذى .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد : باب : فى السبق على الرجل ٦٥/٣ ، ٦٦ رقم ٢٥٧٨ ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب النكاح : باب : حسن معاشرته النساء ٦٣٦/١ رقم ١٩٧٩ ، وعقب عليه البوصيرى كما يقول الشيخ محمد عبد الباقي قائلاً : « إسناده صحيح على شرط البخارى ، =

ومنها إباحته لهن اللعب، والنظر لمن يلعبون، وغيرها من الصور : عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كنتُ أَلعبُ بالبنات في بيت رسول الله صلّى الله عليه وآله وكان لي صواحب يأتينني فيلعبن معي، فيتقمن إذا رأين رسول الله صلّى الله عليه وآله وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يُسريهنَّ إليّ ، فيلعبن معي » (١) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : [دخل الحبيشة المسجد يلعبون ، فقال لي : « يا حميراء : أتحيين أن تنظري إليهم ؟ » فقلت : نعم ، فقام بالباب ، وجئتُه فوضعت ذقني على عاتقه ، فأسندتُ وجهي إلى خده ، قالت : ومن قولهم يومئذ : أبا القاسم طيباً ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « حسبك » ، فقلت : يا رسول الله لا تعجل ، فقام لي ، ثم قال : « حسبك » ، فقلت : لا تعجل يا رسول الله ، قالت : وما لي حب النظر إليهم ، ولكني أحببت أن يبلغ النساء مقامه لي ، ومكانتي منه] (٢) .

وليس يعقل أن يحسن النبي صلّى الله عليه وآله عشرة النساء ثم يدعو إلى إهمال الأهل ، أو على الأقل : سوء عشرتهن .

= وعزاه المزي في الأطراف للنسائي ، وليس هو في رواية ابن السني « ، وأقول إن عزو المزي صحيح بالنسبة للسني الكبرى ، إذ أخرجه النسائي هناك : كتاب عشرة النساء : باب : مسابقة الرجل زوجته ٣٠٣/٥ رقم ٨٩٤٢ - ٨٩٤٥ (١ - ٤) من حديث : هشام بن عروة عن أبيه ، وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن كلاهما عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ، وأحمد في : المسند ٣٩/٦ ، ١٢٩ ، ١٨٢ ، ٢٦١ ، ٢٨٠ ، من حديث عائشة رضي الله عنها واللفظ للنسائي .

(١) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الأدب : باب : الانبساط إلى الناس ٣٧/٨ ، ومسلم في : الصحيح : كتاب فضائل الصحابة : باب : في فضل عائشة رضي الله عنها ١٨٩١ ، ١٨٩٠/٤ ، رقم ٢٤٤٠ ، وأبو داود في : السنن : كتاب الأدب : باب : في اللعب بالبنات ٢٢٦/٥ رقم ٤٩٣١ ، والنسائي في : السنن : كتاب النكاح : باب : إباحة الرجل اللعب لزوجته بالبنات ٣٠٥/٥ ، ٣٠٦ رقم ٨٩٤٦ ، ٨٩٤٩ (١ - ٤) [الكبرى] ، وابن ماجه في : السنن : كتاب النكاح : باب : حسن معاشرته النساء ٦٣٧/١ رقم ١٩٨٢ ، وأحمد في : المسند ٥٧/٦ ، ١٦٦ ، ٢٣٤ ، كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ، واللفظ للبخاري ، والنسائي .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في : الصحيح : كتاب الصلاة : باب : أصحاب الحراب في المسجد ١٢٣/١ ، وكتاب العيدين : باب : إذا فاته العيد يصلى ركعتين ، وكذلك النساء ٢٩/٢ ، ٣٠ ، وكتاب الجهاد : باب : الدرق ٤٧/٤ ، وكتاب المناقب : باب : قصة الحبش وقول النبي صلّى الله عليه وآله : يا بني أرفدة ٢٢٥/٤ ، وكتاب النكاح : باب : نظر المرأة إلى الحبش ونحوهم من غير ريبه ٤٨/٧ ، ٤٩ ، ومسلم في : الصحيح : كتاب العيدين : باب : الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد ٦٠٨/٢ - ٦١٠ رقم ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، والنسائي في : السنن : كتاب العيدين : باب : اللعب بين يدي الإمام يوم العيد ، وباب : اللعب في المسجد يوم العيد ، ونظر النساء إلى ذلك ١٩٥/٣ ، ١٩٦ [المجتبى] ، وكتاب عشرة النساء : باب : إباحة الرجل لزوجته النظر إلى اللعب ٣٠٧/٥ - ٣٠٩ رقم ٨٩٥١ - ٨٩٥٨ (١ - ٨) ، وأحمد في : المسند ٥٦/٦ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٦٦ ، ١٨٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٢٧٠ ، كلهم من حديث عائشة مرفوعاً واللفظ للنسائي .

٥ - وأخيراً قد جاء عنه ﷺ صراحةً ما يبطل هذا الفقه المعوج من أساسه ، إذ يقول ﷺ : « إن لكل عابد شرةً ، ولكل شرةً فترة ، فإما إلى سنة ، وإما إلى بدعة ، فمن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى ، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك » (١) .

وهكذا يتبين أن مقولة : « ساعة لقلبك أو نفسك ، وساعة لربك » ، استناداً لهذا الحديث أو غيره مقولة باطلة ، يُروِّج لها أصحاب الأهواء ، وعبّاد الشهوات ، ويرفضها المسلمون الصادقون ، والله أعلم .
ما يُستفاد من الحديث دعويّاً وتربويّاً :

١ - قوة الإيمان ، وشفافية النفس ، وصفاء القلب في جيل الصحابة ، الأمر الذي حملهم على التفتيش دوماً عما في نفوسهم والسعى لتدارك الخلل الواقع فيها حتى كتب الله لهم النصر والتمكين ، وعلينا أن نقتدى بهم في ذلك ، وأن نسلك سبيلهم .

٢ - أن العبادة في الإسلام تشمل الحياة جميعاً ، إذ هي كما ذكر ابن تيمية - رحمه الله - اسم أو كلمة جامعة لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال ، والأفعال الظاهرة والباطنة ، وحديث : « حنظلة . . . ساعة وساعة » خير شاهد على ذلك .

٣ - أن الاشتغال بشؤون المعاش من تجارة وصناعة وزراعة ونحوها ، وكذلك القيام بحق الأهل ، والولد ليس مما يشين أو يعاب ، بدليل إقرار النبي ﷺ لحنظلة ، ومعه الصديق ، على ما كانا يفعلان من الاشتغال بشؤون المعاش بحق الأهل والولد قائلاً : « ولكن ساعة وساعة » .

٤ - أن الاستدلال بالحديث : ساعة وساعة « على أن الحياة قسمان : قسم لله يكون الإنسان فيه مقيداً بالعبودية ، وقسم للنفس يكون فيه الإنسان حراً طليقاً ، استدلال غير صحيح يأباه لفظ الحديث ، ويأباه كتاب الله ، وسنة النبي ﷺ .

(١) الحديث سبق تخريجه ، ص ١٠٣ .